الفصل الثالث:

نصوص مختارة من التراث التربوي الإسلامي

مقدمة:

كان الفصل الثاني من هذا الكتاب مسحاً للبحوث والدراسات والكتابات التي أنجزتها بعض المؤسسات العلمية، وكثير من العلماء والباحثين وأساتذة الجامعات وطلبة الدراسات العليا في مجال التراث التربوي الإسلامي. ورأينا أنَّ المادة المكتوبة كبيرة الحجم شديدة التنوع، شملت تحقيقاً ودراسة للنصوص التراثية، ومقارنة بينها، وبيان علاقتها بالمعرفة التربوية المعاصرة، وترجمة لأعلام التراث التربوي، وغير ذلك. وقد مثَّل ذلك المسح معالم مهمة في خريطة البحث في التراث التربوي الإسلامي بيَّنت أنواع البحوث وموضوعاتها، ومواقع تكدُّس بعض الأنواع والموضوعات. ونأمُل أن تخدم هذه الخريطة الباحثين في اختيار الموضوعات التي تستحق البحث في ضوء مناطق الخريطة التي تندر فيها البحوث، أو تشتد إليها الحاجة.

أمَّا هذا الفصل؛ فإنَّنا نقدم فيه بعض النصوص من التراث التربوي الإسلامي، وحرصنا أن تمثِّل هذه النصوص معظم المذاهب الفقهية والمدارس الفكرية، التي يمكن أن يُصنف فيها هذا التراث. فجاء في الفصل نصوصٌ تمثل المذاهب الثمانية؛ الحنفي (الزرنوجي)، والمالكي (ابن سحنون)، والشافعي (ابن جماعة)، والحنبلي (ابن قيم الجوزية)، والإثْنَـيّ عشري (العاملي)، والزيدي (الحسين ابن المنصور بالله)، والظاهري (ابن حزم)، والإباضي (الجيطالي). وأضفنا إلى هذه المختارات مادة للاجتهاد غير المذهبي (الشوكاني). وبذلك أصبح لدينا تسعة مختارات من المدارس الفقهية المختلفة.

وللتمثيل على المدارس الفكرية غير الفقهية اخترنا أربع مدارس أخرى، هي: للتراث الصوفي (المحاسبي)، وللفلسفي (مسكويه)، وللكلامي والأدبي (الجاحظ)، وللتاريخي الاجتماعي أو الحضاري (ابن خلدون). وبذلك أصبح لدينا في هذا

الفصل نصوص مختارة من ثلاثة عشر مرجعاً من مراجع التراث التربوي الإسلامي.

وقد قدمنا لكل نص من هذه النصوص تعريفاً بالمؤلف وبالكتاب الذي اخترنا منه ذلك النص. وحرصنا على أن نختار ٣-٥ صفحات من كل نص تعبر عن بعض خصوصيات ذلك النص، وتسمح كذلك ببيان التشابه الحرفي في مادة بعض النصوص.

وإذا كان الفصلان الأول والثاني خُصّصا للحديث عن التراث، فإننا باختيار هذه النماذج والأمثلة في هذا الفصل نتعامل مع التراث نفسه، ونحسب أن قراءة هذه النماذج والأمثلة أمر مهم، لما تقدمه من روح النص ولغته ومنهجه.

وقد اعتمدنا في تأليف هذا الكتاب نظام التقسيم السباعي، قدر الإمكان، فكان عدد فصول الكتاب سبعة، وكان كل فصل من فصول الكتاب سبعة مباحث، وكان يمكن أن ننظم مادة هذا الفصل في سبعة أقسام، هي:

- المذاهب الفقهية السنية.
- المذاهب الفقهية غير السنية.
- الفقه اللامذهبي.
- المدرسة الفلسفية.
- المدرسة الصوفية.
- المدرسة الأدبية.
- المدرسة التاريخية.

ولكننا آثرنا أن نترك المادة بعناصرها الثلاثة عشر مرتبة وفق التسلسل التاريخي لسنة وفاة المؤلفين.

ولن يتضمن هذا الفصل أيّ دراسة لهذه النصوص، لأنَّ ذلك سيتم في الفصول اللاحقة إن شاء الله.

جدول يبين النصوص المختارة (وعددها ١٣ نصاً)

الرقم	عنوان المصدر	المؤلف	تاريخ الوفاة	المدرسة
١-	رسالة المسترشدين	الحارث بن أسد المحاسبي	٢٣٤هـ	صوفية
٢-	رسالة المعلمين	عمرو بن بحر الجاحظ	٢٥٥هـ	أدبية
٣-	آداب المعلمين	محمد ابن سحنون	٢٥٦هـ	فقهية مالكية
٤-	تهذيب الأخلاق	أحمد محمد مسكويه	٤٢١هـ	فلسفية صوفية
٥-	مراتب العلوم، ومداواة النفوس	علي ابن سعيد ابن حزم	٤٥٦هـ	فقهية ظاهرية
٦-	تعليم المتعلم طريق التعلم	برهان الدين الزرنوجي	٦٢٠هـ	فقهية حنفية
٧-	قناطر الخيرات	إسماعيل بن موسى الجيطالي	٧٥٠هـ(؟)	فقهية إباضية
٨-	تحفة المودود بأحكام المولود	ابن قيم الجوزية	٧٥١هـ	فقهية طبية حنبلية
٩-	من مقدمة ابن خلدون	عبد الرحمن ابن خلدون	٨٠٨هـ	تاريخية حضارية
١٠-	منية المريد في أدب المفيد والمستفيد	زين الدين بن علي العاملي	٩٦٥هـ	فقهية جعفرية
١١-	الدر النضيد في أدب المفيد والمستفيد	بدر الدين محمد الغَزِّي	٩٨٤هـ	فقهية شافعية
١٢-	آداب العلماء والمعلمين	الحسين بن القاسم الزيدي	١٠٥٠هـ	فقهية زيدية
١٣-	أدب الطلب ومنتهى الأرب	محمد بن علي الشوكاني	١٢٥٠هـ	فقهية لا مذهبية
(؟) علامة الاستفهام هذه عند عام الوفاة تعني أن هذا التاريخ غير مؤكد، بل يرجح أن يكون قريباً منه				

جدول أسماء المؤلفين في المصنفات المنتقاة في هذا الفصل وتقسيمها حسب المدارس التربوية

	١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	
	المدرسة الفقهية المذاهب السنية	المدرسة الفقهية المذاهب الأخرى	الفقه اللامذهبي	مدرسة التصوف	المدرسة الفلسفية	المدرسة التاريخية	المدرسة الأدبية	المجموع
١-	ابن سحنون (مالكي)	العاملي (شيعي اثني عشري)	الشوكاني (مجتهد)	المحاسبي	ابن مسكويه	ابن خلدون	الجاحظ	
٢-	الزرنوجي (حنفي)	ابن حزم (ظاهري)						
٣-	الغَزِّي (شافعي)	ابن القاسم (زيدي)						
٤-	ابن القيم (حنبلي)	الجيطالي (إباضي)						
	٤	٤	١	١	١	١	١	١٣

أولاً: "رسالة المسترشدين" للحارث بن أسد المحاسبي[1]

١- التعريف بـ"المحاسبي":

هو أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري، أحد أعلام التصوف في القرن الثالث الهجري، عُرف بالمحاسبي لكثرة محاسبته نفسه. كان صوفياً زاهداً، وفقيهاً أصولياً، ومحدثاً ومتكلماً. وُلد في البصرة في حدود (١٦٥هـ)، وتوفي ببغداد سنة (٢٣٤هـ).

٢- مؤلفاته:

من أهم مؤلفاته: الرعاية لحقوق الله، والتوهم، ورسالة المسترشدين، وآداب النفوس، وشرح المعرفة، والمسائل في أعمال القلوب والجوارح، وماهية العقل ومعناه، وكتاب في التفكر والاعتبار، ورسالة المراقبة، والقصد والرجوع إلى الله تعالى، والنصائح، والعقل وفهم القرآن، وكتاب العلم.

وكتابه "رسالة المسترشدين"، تحدث فيه عن أن فريضة كتاب الله هي العمل به، وعن أثر الخير على من يفعله، وعن الحلال والحرام وأن الحلال بَيِّن والحرام بَيِّن، وعن فضل النية، وعن الفكرة والخطرة، وعن قول العالم: لا أدري، وعن الإيمان بالقدر خيره وشره، وعن أهمية قول الحق والعمل به، وعن صحبة الصالحين، وضرورة الاهتمام بالآخرة، والتحذير من المراء، وترك الجدل، وغيرها من النصائح. ويصنف الكتاب ضمن التراث التربوي الصوفي الذي يهدف إلى تربية النفس ومحاسبتها، وبيان الأمراض التي تدخل عليها وسبل تجنبها وعلاجها. ولذلك لم ينشغل المؤلف بالجوانب الفقهية الخاصة بآداب طالب العلم مع المعلم أو علاقة المعلم بتلاميذه، وكتب التعليم ومؤسساته وغير ذلك ممّا انشغلت به معظم

---

(١) المحاسبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد. **رسالة المسترشدين**، حققه وخرج أحاديثه وعلّق عليه: عبد الفتاح أبو غدة، حلب، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، ط٥، ١٩٨٣م، ص٣٢٦.

obeikan.com

كتب التراث الأخرىٰ، بل كان تركيزه علىٰ تربية النفس الإنسانية وتزكية القلوب، وتوثيق العلاقة بالله سبحانه، والحثّ علىٰ الزهد في الدنيا وابتغاء أجر الآخرة.

٣- مختارات من :رسالة المسترشدين":

من شرح الله صدرَه ووصل التصديقُ إلىٰ قلبه، ورغب في الوسيلة إليه لزم منهاج ذوي الألباب، برعاية حدود الشريعة من كتاب الله تعالىٰ وسنة نبيه ﷺ، وما اجتمع عليه المهتدون من الأئمة. وهذا هو الصراط المستقيم الذي دعا إليه عبادَه فقال جلَّ وعزَّ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣] وقال رسولُ الله ﷺ: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عُضوا عليها بالنواجذ."(١)

واعلم أنَّ فريضةَ كتابِ الله العمل بحكمه من الأمر والنهي والخوف والرجاء لوعده ووعيده، والإيمان بمتشابهه والاعتبار بقصصه وأمثاله. فإذا أتيت بذلك فقد خرجتَ من ظلمات الجهل إلىٰ نور العلم، ومن عذاب الشك إلىٰ روح اليقين، قال الله جلَّ ذِكرُه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].(٢)

"وإنما يميِّز ذلك ويرغب فيه أهلُ العقل عن الله، الذين عملوا في أحكام الظاهر، وتنزهوا عن الشبه، قال رسولُ الله ﷺ: "الحلالُ بيِّنٌ والحرام بيِّنٌ، وبين ذلك أمور مشتبهات" تركُها خيْرٌ من أخذها.

فافحص عن النيَّة، واعرف الإرادةَ، فإنَّ المجازاة بالنية، قال رسولُ الله ﷺ: "إنما الأعمالُ بالنيّات، وإنما لكلِّ امرئٍ ما نوىٰ." والزم تقوىٰ الله فإنَّ "المسلمَ من سلِمَ الناسُ من يدِه ولسانِه، والمؤمنَ من أمِن الناسُ بوائقَه". قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "اتق الله بطاعته، وأطع الله بتقواه، ولْتخفْ يداك عن دماء المسلمين، وبطنُك من أموالهم، ولسانُك عن أعراضهم. وحاسب نفسَك في كلِّ خطرة. وراقب الله في كل

(١) المرجع السابق، ص٣٦-٣٧.

(٢) المرجع السابق، ص٣٨.

نَفَسٍ". قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "حاسبوا أنفسَكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتزيَّنوا للعرضِ الأكبرِ يوم لا تخفىٰ منكم خافية. وخفِ الله في دينك، وارجه في جميع أمورك، واصبر علىٰ ما أصابك". قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لا تَخَفْ إلا ذنبَك، ولا ترْجُ إلا ربَّك، ولا يستحِ الذي لا يعلم أن يسألَ حتىٰ يعلمَ، ولا يستحِ من يسأل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم".[1]

"ولا تخالط إلا عاقلاً تقياً، ولا تجالِسْ إلا عالماً بصيراً، وقد سُئل النبيُّ ﷺ أي جُلسائنا خيرٌ؟ قال: «من ذكّركُم بالله رؤيتُه، وزادكم في علمكم منطقُه، وذكَّركُم بالآخرة عملُه»."[2]

والزم الأدب، وفارق الهوىٰ والغضب، واعمل في أسباب التيقّظ، واتخذ الرفق خِدناً والتأني صاحباً، والسلامةَ كهفاً، والفراغَ غنيمةً، والدنيا مطيّةً، والآخرة منزلاً. وقال الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إن الله تعالىٰ لم يجعل للمؤمن راحةً دون الجنة". واحذر مواطن الغفلة، ومخاتل العدو، وطربات الهوىٰ، وضراوة الشهوة، وأماني النفس فإن رسول الله ﷺ، قال: "أعدىٰ أعدائك نفسُك التي بين جنبيك" وإنما صارت أعدىٰ أعدائك لطاعتك لها، وكل أمرٍ لاح لك ضُوءُه بمنهاجِ الحقِّ فاعرضه علىٰ الكتاب والسنة والآداب الصالحة، فإن خفيَ عليك أمرٌ فخذ فيه رأي من ترضىٰ دينَه وعقلَه، واعلم أنَّ علىٰ الحقِّ شاهداً بقبول النفس له، ألا ترىٰ لقولِ رسول الله ﷺ: "استفت قلبَك وإن أفتاك المفتون" وقيِّد الجوارحَ بإحكامِ العِلم، وراع همَّك بمعرفة قُرب الله منك، وقُمْ بين يديه مقامَ العبد المستجير تجده رؤوفاً رحيماً، قال رسولُ الله ﷺ: "إن الله عَزَّوَجَلَّ يُنزل العبد من نفسِه بقدر منزلتِه منه". وذلك علىٰ قدرِ الخشيةِ لله والعلم به والمعرفة له.[3]

واعلم أنَّ المؤمن مُختبرٌ صدقَه في كل حال، مُطّلب نفسه بالبلوىٰ، رقيب لله علىٰ نفسِه، فاثبت علىٰ محجَّةِ الحقِّ، فإنك مراد العون. واصدق في الطلب ترث عِلمَ

---

(١) المرجع السابق، ص٤٥-٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص٥٩.

(٣) المرجع السابق، ص٧٩-٨٨.

البصائر، وتبدُ لك عيونُ المعارف، وتميّز بنفسك علمَ ما يرد عليك بخالص التوفيق، فإنما السبق لمن عمل، والخشية لمن علم، والتوكل لمن وثق، والخوف لمن أيقن، والمزيد لمن شكر. واعلم أنَّ ما يصل العبد إليه من الفهم بقدر تقديم عقله وموجود علمه بتقواه لله وطاعته، فمن وهب الله له العقلَ وأحياه بالعلم بعد الإيمان، وبصَّره باليقين، وعرَّفه عيوبَ نفسه فقد نُظمت له خصال البر، فاطلب البر في التقوىٰ، وخذ العلم من أهل الخشية، واستجلب اليقين بمباحث الصدق في مواطن التفكر، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ ﴾ [الأنعام: ٧٥] وقال رسولُ الله ﷺ: "تعلموا اليقين فإني أتعلمه."[1]

واعلم أنَّ كلَّ عقلٍ لا يصحبه ثلاثةُ أشياء فهو عقلٌ مكّارٌ: إيثار الطاعة علىٰ المعصية، وإيثار العلم علىٰ الجهل، وإيثار الدين علىٰ الدنيا، وكل علمٍ لا يصحبه ثلاثةُ أشياء فهو مزيد في الحجة: كفُّ الأذىٰ بقطع الرغبة، ووجود العملِ بالخشية، وبذل الإنصاف بالتباذل والرحمة.

واعلم أنه ما تزين أحدٌ بزينةٍ كالعقل، ولا لبس ثوباً أجملَ من العلم، لأنه ما عُرف الله إلا بالعقل، ولا أُطيع إلا بالعلم، واعلم أنَّ أهلَ المعرفة بالله بنوا أصولَ الأحوال علىٰ شاهد العلمِ، وتفقّهوا في الفروع، ألا ترىٰ لقول النبيِّ ﷺ: "من عمل بما علم؛ ورَّثه الله علمَ ما لم يعلم". وعلامة ذلك فهمُ تزايد العلم بالإشفاق، ومزيد العلم بالاقتداء، فكلما ازداد علماً ازداد خوفاً، وكلما ازداد عملاً ازداد تواضعاً. والأصل الذي بنوا به في طريقهم التزام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالصدق، وتقديم العلم علىٰ حظوظ النفوس، والاستغناء بالله عن جميع خلقه. فاطلب آثار من زاده العلمُ خشيةً، والعملُ بصيرةً، والعقلُ معرفةً، فإن حجبَك عن منهاجهم فقْدُ الأدب فارجع بالذمِّ علىٰ نفسك، ولن يخفىٰ علىٰ أهل العلم صفة المخلصين.[2]

---

(١) المرجع السابق، ص٩١-٩٦.

(٢) المرجع السابق، ص٩٧- ١٠٢.

واعلم أنَّ في كلِّ فكرةٍ أدباً، وفي كلِّ إشارة علماً، وإنمّا يميز ذلك من فهم عن الله عَزَّوَجَلَّ مرادَه، وجنىٰ فوائد اليقين من خطابه، وعلامة ذلك في الصادق؛ إذا نظرَ اعتَبرَ، وإذا صَمَتَ تفكَّر، وإذا تكلَّم ذكَرَ، وإذا مُنع صبرَ، وإذا أُعطي شكر، وإذا ابتليّ استرجع، وإذا جُهل عليه حلم، وإذا علم تواضع، وإذا علَّم رفق. وإذا سُئل بذل، شفاءٌ للقاصدِ، وعونٌ للمسترشد، حليفُ صدقٍ، وكهفُ أمنٍ، بَرٌّ، قريبُ الرضا في حقِّ نفسه، بعيدُ الهمة في حقِّ الله تعالىٰ.(١)

"واحذر التزيُّن بالعلم كما تحذر العجب بالعمل، ولا تعتقدنَّ باطناً من الأدب ينقضه عليك ظاهرٌ من العلم.(٢)...

"واعلم أنه لا يرضىٰ من العلم والعمل إلا ما ثبت باليقين أصلُه، وعلا بالصدق فرعُه، وأثمر بالورع نباتُه، وقام بالإشفاق برهانُه، وحُجب بالخشية أستارُه، فلا ترض من نفسك بالتواني، فإنه لا عُذر لأحدٍ في التفريط، ولا لأحدٍ عن الله غنىٰ.

"واعلم أنَّ مِنْ سعادة المرء حُسن النية فيما عند الله تعالىٰ، والتوفيق لمحابه، ومن أراد الله به خيراً وهب له العقلَ، وحبَّب إليه العلم.(٣)

* * *

ثانياً: "رسالة المعلمين" لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(٤)

١ - التعريف بـ"الجاحظ":

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، الشهير بالجاحظ لجحوظ في عينيه، ولد في البصرة عام (١٦٣هـ). من أئمة البلاغة والأدب،

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٢ -١٠٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٣٣.

(٣) المرجع السابق، ص١٦٣ - ١٦٦.

(٤) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب. **رسائل الجاحظ**، تحقيق: عبد السلام هارون، بيروت: دار الجيل، ط١، ١٩٩١م، مج٢، ج٣، ص٢٧-٥١.

وكان معتزلياً، تَتَلْمذ على النظّام، وبِشر بنِ المعتمر. عُرف أتباعه بالفرقة الجاحظية، وقعت عليه الكتب فمات سنة (٢٥٥هـ).

٢- مؤلفاته:

زادت مؤلفاته عن مائتي كتاب منها: الحيوان، والبيان والتبيين، والبخلاء، والمحاسن والأضداد، ونظم القرآن. وله مجموعة كبيرة من الرسائل القصيرة في موضوعات شتى عددها (٤٤) رسالة، منها: المعاد والمعاش، وكتمان السر وحفظ اللسان، وفضيلة المعتزلة، والاستبداد والمشاورة في الحرب، ورسالة المعلمين، وذم القواد، وتنبيه الملوك، وفضائل الأتراك، وصناعة الكلام، وغيرها، جمعت في أربعة أجزاء، مجموع صفحاتها (١٤٨٠) من غير صفحات المقدمات والفهارس.

كتاب رسائل الجاحظ، يضم (٤٤ رسالة) وتقع في مجلدين، كل مجلد يضم جزئين، وتقع رسالة المعلمين في الجزء الأول من المجلد الثاني، وتقع في حوالي ٢٤ صفحة، و(٢٧٠٠ كلمة). تحدث فيها عن الكتاتيب في القرن الثاني الهجري وعن مواد التعليم والنقل والعقل، وضرورة تعهد طبيعة الطفل وإثاراتها، والمعلم والمؤدب، وأصناف المعلمين، ومنزلة معلم الأحداث، ودور الكتاب في توارث الخبرة والحفاظ عليها، وعن شأن الكتاب والكتابة، وضرورة الاعتراف للطفل بفرديته، وعن وظائف الألفاظ، ومراتب الكلام، وتعليم اللغات، والترجمة، والفرق بين الحفظ والفهم، وفن الكتاب في المدرسة الأدبية، والكلامية. والكتاب مطبوع، ويصنف في المدرسة الأدبية.

٣- مختارات من "رسالة المعلمين":

أعانك الله على سورة الغضب، وعصمك من سرف الهوى، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف ورجح في قلبك إيثار الأناة، فقد استعملت في المعلمين نوك السفهاء، وخطل الجهلاء، ومفاحشة الأبذياء، ومجانبة سبل الحكماء، وتهكم المقتدرين، وأمن المغترين، ومن تعرض للعداوة وجدها حاضرة، ولا حاجة بك إلى

تكلّف ما كُفيت.

ولولا الكتاب لاختلّت أخبار الماضين، وانقطعت آثار الغائبين، وإنما اللسان للشاهد لك، والقلمُ للغائب عنك، وللماضي قبلك، والغابر بعدك، صار نفعُه أعمّ، والدواوين إليه أفقر. والملك المقيم بالواسطة لا يدرك مصالح أطرافه وسد ثغوره، وتقويم سكان مملكته إلا بالكتاب.

ولولا الكتاب ما تم تدبير، ولا استقامت الأمور، وقد رأينا عمود صلاح الدين والدنيا إنما يعتدل في نصابه، ويقوم على أساسه بالكتاب والحساب.

وليس علينا لأحد في ذلك من المنة بعد الله الذي اخترع ذلك لنا ودلنا عليه، وأخذ بنواصينا إليه، ما للمعلمين الذين سخّرهم لنا، ووصل حاجتهم إلى ما في أيدينا، وهؤلاء هم الذين هجوتهم وشكوتهم وحاججتهم وفحشت عليهم، وألزمت الأكابر ذنب الأصاغر، وحكمت على المجتهدين بتفريط المقصرين، ورثيت لآباء الصبيان من إبطاء المعلمين على تحذيقهم، ولم ترث للمعلمين من إبطاء الصبيان عما يراد بهم، وبعدهم عن صرف القلوب لما يحفظونه ويدرسونه، والمعلمون أشقى بالصبيان من رعاة الضأن ورواض المهارة.

ولو نظرت من جهة النظر علمتَ أن النعمة فيهم عظيمة سابغة، والشكر عليها لازم واجب.[1]

وكرهت الحكماءُ الرؤساء أصحابُ الاستنباط والتفكير جودةَ الحفظ لمكان الاتكال عليه، وإغفال العقل من التمييز حتى قالوا: "الحفظ عذقُ الذهن" ولأن مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلداً، والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه إلى برد اليقين، وعز الثقة. والقضية الصحيحة والحكم المحمود: أنه متى أدام الحفظ أضرَّ ذلك بالاستنباط، ومتى أدام الاستنباط أضرَّ ذلك بالحفظ، وإن كان الحفظ أشرف منزلة منه، ومتى أهمل النظر لم تُسرع إليه المعاني، ومتى أهمل الحفظ لم تعلق بقلبه وقلَّ

(١) المرجع السابق، مج٢، ج٣، ص٢٧-٢٨.

مكثها في صدره.

وطبيعة الحفظ غير طبيعة الاستنباط، والذي يعالجان به ويستعينان متفق عليه، ألا وهو فراغ القلب للشيء، والشهوة له، وبهما يكون التمام، وتظهر الفضيلة.[١]

وجدنا لكل صنف من جميع ما بالناس إلى تعلمه حاجة، معلمين كمعلمي الكتاب والحساب، والفرائض والقرآن، والنحو والعروض والأشعار،... وبعد ذلك الفروسية، واللعب بالرماح والسيوف والمشاولة، والمنازلة والمطاردة،... والطب والهندسة،... ويأمرون بتعليم أبناء الرعية الفلاحة والنجارة والبنيان والصياغة والخياطة والسرد والصيغ وأنواع الحياكة. نعم حتى علَّموا البلابل وأصناف الطير الألحان. ... ووجدنا للأشياء كلها معلمين.[٢]

وقالوا: إنما اشتق اسم المعلم من العلم، واسم المؤدب من الأدب، وقد علمنا أن العلم هو الأصل، والأدب هو الفرع. والأدب إما خُلُق وإما رواية، وقد أطلقوا له اسم المؤدب على العموم، والعلم أصلٌ لكل خير، وبه ينفصل الكرم من اللؤم، والحلال من الحرام، والفضلُ من الموازنة بين أفضل الخيرين، والمقابلة بين أنقص الشرين.[٣]

درّسه العلم، ما كان فارغاً من أشغال الرجال، ومطالب ذوي الهمم، واحتل في أن تكون أحب إليه من أمه، ولا تستطيع أن يمحضك المِقَةَ، ويصفي لك المودة مع كراهته لما تحمله إليه من ثقل التأديب عند من لم يبلغ حال العارف بفضله.

فاستخرج مكنون محبته ببر اللسان، وبذل المال، ولهذا مقدارٌ من جازه إفراط، والإفراط سرف، ومن قصّر عنه فرط، والمفرط مضياع.[٤]

* * *

(١) المرجع السابق، مج٢، ج٣، ص٣٠.

(٢) المرجع السابق، مج٢، ج٣، ص٣٤.

(٣) المرجع السابق، مج٢، ج٣، ص٣٥.

(٤) المرجع السابق، مج٢، ج٣، ص٤٩-٥١.

ثالثاً: "آداب المعلمين" لمحمد بن سحنون[1]

١- التعريف بـ"ابن سحنون":

هو أبو عبد الله محمد بن سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي، ولد في القيروان عام ٢٠٢هـ/ ٨١٧م، وتعلم على يد والده، وأخذ كثيراً من الصفات الشخصية والعلمية التي عُرفت في والده، من الورع والفقه والدين. وعاش متواضعاً، ومكرماً عند أمراء البلاد من بني الأغلب، وعند العامة من الناس. وأكثر ما اشتهر بين الناس من مؤلفاته كتاب صغير بعنوان: آداب المعلمين. توفي ابن سحنون عام ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م.

٢- التعريف بـ"آداب المعلمين":

وهذا الكتاب نص قصير بنحو (٢٠) صفحة. ولكنه يعد أقدم ما وصلنا من كتب التراث المتخصصة في التعليم، وتدور موضوعاته حول واقع التعليم في ذلك العصر، وتتضمن أساسيات العلم في القرآن والفقه والحديث واللغة، وأخذ الأجر على التعليم، وحدود معاقبة المعلم للتلاميذ، وعلاقة المعلم بأولياء أمور التلاميذ، وأساليب التعليم من قراءة وكتابة وتسميع.

يحتوي الكتاب على عشرة أبواب، وهي: ما جاء في تعليم القرآن العزيز، ما جاء في العدل بين الصبيان، ما يكره محوه من ذكر الله تعالى وما ينبغي أن يفعل ذلك، ما جاء في الأدب وما يجوز وما لا يجوز، ما جاء في الختم وما يجب في ذلك للمعلم، ما جاء في القضاء في عطية العيد، ما ينبغي أن يخلى الصبيان فيه، ما يجب على المعلم من لزوم الصبيان، ما جاء في إجازة المعلم ومتى يجب، ما جاء في إجازة

---

(١) آداب المعلمين لابن سحنون، تحقيق: محمد العروسي المطوي. عند:

- حجازي، عبد الرحمن عثمان. **المذهب التربوي عند ابن سحنون: رائد التأليف التربوي الإسلامي**، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٦م، ص٢٥

المصحف وكتب الفقه وما شابهها.

٣- مختارات من نص كتاب" أدب المعلمين":[١]

"قال أبو عبد الله محمد بن سحنون: حدثني أبي، سحنون (بسنده) عن رسول الله ﷺ قال: "أفضلكم من تعلَّم القرآن وعلَّمه". ...

"وحدثني موسى (بسنده) عن عثمان بن عفان في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٥] قال: من تعلم القرآن وعلّمه فهو ممن اصطفاه الله من بني آدم...

"وحدثونا عن سفيان الثوري، عن علاء بن السائب، قال: قال ابن مسعود: ثلاث لا بُدَّ للناس منهم: لا بد للناس من أمير يحكم بينهم، ولولا ذلك لأكل بعضهم بعضاً، ولا بد للناس من شراء المصاحف وبيعها، ولولا ذلك لقلّ كتاب الله، ولا بد للناس من معلِّمٍ يُعلِّمُ أولادهم، ويأخذ على ذلك أجراً، ولولا ذلك لكان الناس أميين."[٢] ...

باب ما يكره محوه من ذكر الله تعالى، وما ينبغي أن يفعل ذلك

"قيل لأنس: كيف كان المؤدبون على عهد الأئمة: أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم؟ قال: كان المؤدب له إجانة، وكل صبي يأتي كل يوم بنوبته ماء طاهراً فيصبونه فيها، فيمحون به ألواحهم، قال أنس: ثم يحفرون حفرة في الأرض فيصبون ذلك الماء فينشف...

"قلت: أفترى أن يلعط؟ قال: لا بأس به، ولا يمسح بالرجل، ويُمسح بالمنديل، وما أشبهه... قلت: فما ترى فيما يكتب الصبيان في الكتاب من المسائل؟ قال: أما ما كان من ذكر الله فلا يمحه برجله، ولا بأس أن يمحى غير ذلك مما ليس من القرآن".[٣]

---

(١) المرجع السابق، ص١١٣-١٢٨.

(٢) المرجع السابق، ص١١٤.

(٣) المرجع السابق، ص١١٥.

obeikan.com

ما جاء في الأدب، وما يجوز من ذلك، وما لا يجوز

قال: وحدثنا عن عبد الرحمن عن عبيد بن إسحاق عن سيف بن محمد قال: كنت جالساً عند سعد الخفاف، فجاءه ابنه يبكي، فقال: يا بني ما يبكيك؟ قال: ضربني المعلم، قال: أما والله لأحدثنكم اليوم: حدثني عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: "شرار أمتي معلمو صبيانهم، أقلهم رحمة لليتيم، وأغلظهم على المسكين". ... قال محمد: وإنما ذلك؛ لأنه يضربهم إذا غضب، وليس على منافعهم، ولا بأس أن يضربهم على منافعهم، ولا يجاوز الأدب ثلاثاً، إلا أن يأذن الأب في أكثر من ذلك إذا آذى أحداً، ويؤدبهم على اللعب والبطالة، ولا يجاوز بالأدب عشرة، وأما على قراءة القرآن فلا يجاوز أدبه ثلاثاً.[1]...

"قال (سحنون): وأحب للمعلم أن لا يولي أحداً من الصبيان الضرب، ولا يجعل لهم عريفاً منهم، إلا أن يكون الصبي الذي قد ختم، وعرف القرآن، وهو مستغن عن التعليم، فلا بأس بذلك، وأن يعينه فإن ذلك منفعة للصبي، ولا يحل أن يأمر أحداً أن يُعلِّم أحداً منهم إلا أن يكون في ذلك منفعة للصبي في تخريجه، أو يأذن والده في ذلك، وليلِ هو ذلك بنفسه، أو يستأجر من يعينه إذا كان في مثل كفالته.[2]...

قال سحنون: ولا يجوز للمعلم أن يرسل الصبيان في حوائجه، وينبغي للمعلم أن يأمرهم بالصلاة، إذا كانوا بني سبع سنين ويضربهم عليها إذا كانوا بني عشر، وكذلك قال مالك: حدثنا عنه عبد الرحمن، قال: قال مالك: يضربون عليها بنو عشر، ويفرق بينهم في المضاجع، قلت: الذكور والإناث؟ قال: نعم.[3]... قال سحنون: وأكره للمعلم أن يعلّم الجواري ويخلطهن مع الغلمان؛ لأن ذلك فساد لهم.[4]...

---

(١) المرجع السابق، ص١١٦.

(٢) المرجع السابق، ص١١٨.

(٣) المرجع السابق، ص١٢٢.

(٤) المرجع السابق، ص١٢٣.

"وقالوا: إذا استظهر الصبي القرآن كله، كان أكثر في العطية للمعلم من إذا قرأه نظراً، وإذا لم يتهجأ الصبي ما يملى عليه ولا يفهم حروف القرآن لم يعط المعلم شيئاً، وأُدّب المعلم، ومُنع من التعليم، إذا عُرف بهذا، وظَهر تفريطه."[1]

* * *

رابعاً: "تهذيب الأخلاق" لمسكويه[2]

١- التعريف بـ"مسكويه":

مسكويه هو أبو علي أحمد محمد بن يعقوب، ولد في الرِّيّ بالقرب من طهران، ولا يُعرف الكثير عن حياته في أول عمره، أو عن أساتذته، فتتلمذ فيها على أبي الطيب الكيميائي الرازي، واهتم بالتاريخ، ودرس تاريخ الطبري. ودرس علوم اليونان وبرع فيها، ولا سيما المنطق والطب، توفي في أصفهان عام ٤٢٠هـ عن مائة سنة.

وهو فيلسوف، ومؤرخ، وطبيب، وأديب.كانت له علاقات وثيقة مع العلماء والأدباء في عصره. كانت الحقبة التي عاش فيها مسكويه ألمع فترات التاريخ الإسلامي، من حيث تطور العلم والفكر، وازدهرت المؤسسات العلمية، ونبغ كثير من العلماء في مختلف التخصصات، على الرغم من أنها حقبةُ ضعفٍ وتفكّكٍ سياسي، وانهيار أخلاقي. وقد انعكس ذلك على جهود مسكويه في تخصيص أهم كتبه لإصلاح المجتمع من خلال تطهير إصلاح النفوس والأخلاق.

٢- مؤلفاته:

من مؤلفاته: له مؤلفات كثيرة، منها: "تجارب الأمم وتعاقب الهمم" في التاريخ، و"تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق" في فلسفة الأخلاق والحكمة

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٥.

(٢) مسكويه، أبو علي أحمد محمد بن يعقوب. **تهذيب الأخلاق**، دراسة وتحقيق: عماد الهلالي، بغداد وبيروت: منشورات الجمل، ط١، ٢٠١١م.

العملية، وله كتب في الطب والكيمياء، والشعر. وله كتاب "الهوامل والشوامل" فالهوامل هي أسئلة أبي حيان التوحيدي، والشوامل هي أجوبة مسكويه.

ويتألف كتابه "تهذيب الأخلاق" من مقدمة وسبع مقالات، هي: في معنى النفس وتمييزها عن الجسد، وعن خلق الإنسان وقابليته للتهذيب والتربية، وعن الخير والسعادة التي يسعى الإنسان للحصول عليها، وفي العدالة وتمييز الأعمال الخلقية عن غيرها، وفي المحبة والصداقة، وفي الأمراض النفسية، وفي علاج النفس.

٣- مختارات من كتاب "تهذيب الأخلاق":

غرضنا في هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خُلُقاً تصدر به عنا الأفعال كلّها جميلة، وتكون مع ذلك سهلة علينا لا كلفة فيها ولا مشقّة، ويكون ذلك بصناعة وعلى ترتيب تعليمي.

والطريق في ذلك أن نعرف أولاً نفوسنا ما هي؟ وأي شيء هي؟، ولأي شيء أوجدت فينا؟ أعني كمالها وغايتها، وما قواها وملكاتها التي إذا استعملناها على ما ينبغي بلغنا بها هذه الرتبة العلية. وما الأشياء العائقة لنا عنها وما الذي يزكيها فتفلح، وما الذي يدسيها فتخيب، فإنّه عَزّ مِن قائل يقول: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧ - ١٠].(١)

النفس، ليست جسماً ولا جزءاً من جسم، وبيان ذلك: أن كل جسمٍ له صورة ما، فإنه ليس يقبل صورة أخرى من جنس صورته الأولى، إلا بعد مفارقته الصورة الأولى مفارقة تامة... ونحن نجد أنفسنا تقبل صور الأشياء كلها على اختلافها من المحسوسات والمعقولات على التمام والكمال، من غير مفارقة للأولى ولا معاقبة ولا زوال رسم، بل يبقى الرسم الأول تاماً كاملاً، وتقبل الرسم الثاني أيضاً تاماً كاملاً.

وهذه الخاصة مضادة لخواص الأجسام. ولهذه العلّة يزداد الإنسان فهماً كلّما ارتاض وتخرج في العلوم والآداب، فليست النفس إذن جسماً.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٣٣-٢٣٤.

فأما أنها ليست بعرض ... لأن العرض في نفسه محمول أبداً، موجود في غيره، لا قِوام له بذاته. وهذا الجوهر الذي وصفنا حاله هو قابل أبداً حامل أتم وأكمل من حمل الأجسام للأعراض. **فإذن**؛ النفس ليست جسماً ولا جزءاً من جسم ولا عَرَضاً.[1]

فائدة التماس الفضيلة واجتناب النقيصة

وليعلم الناظر في هذا الكتاب أنني خاصة تدرجت في فطام نفسي بعد الكبر، واستحكام العادة، وجاهدتها جهاداً عظيماً، ورضيت لك أيها الفاحص عن الفضائل والطالب للأدب الحقيقي بما رضيت لنفسي، بل تجاوزت في النصيحة لك إلى أن أشرت عليك بما فاتني في ابتداء أمري، لتدركه أنت، ودللتك على طريق النجاة قبل أن تتجه في مفاوز الضلالة، وقدمت لك السفينة قبل أن تغرق في بحر المهالك. فالله الله في نفوسكم معاشر الإخوان والأولاد! استسلموا للحق، وتأدبوا بالأدب الحقيقي لا المزور، وخذوا الحكمة البالغة، وانتهجوا الصراط المستقيم، وتصوروا حالات أنفسكم وتذكروا قواها.[2]

ولذلك قال قوم: إن النفسَ واحدةٌ ولها قوىٰ كثيرة، وقال آخرون: بل هي واحدة بالذات كثيرة بالعرض وبالموضوع، ... وليس يضرك في هذا الوقت أن تعتقد أي هذه الآراء شئت بعد أن تعلم أن بعض هذه كريمة أدبية بالطبع وبعضها مهينة عادمة للأدب بالطبع وليس فيها استعداد لقبول الأدب، وبعضها عادمة للأدب، إلا أنها تقبل التأدب وتنقاد للتي هي أدبية.

أما الكريمة الأدبية بالطبع؛ فالنفس الناطقة. وأما العادمة للأدب، وهي مع ذلك غير قابلة له فيه النفس البهيمية، وأما التي عدمت الأدب، ولكنها تقبله وتنقاد له؛ فهي النفس الغضبية وإنما وهب الله تعالىٰ لنا هذه النفس خاصة لنستعين بها على تقويم البهيمية التي لا تقبل الأدب.[3]

---

(١) المرجع السابق، ص٢٣٧-٢٣٨.

(٢) المرجع السابق، ص٢٨٥.

(٣) المرجع السابق، ص٢٨٥ - ٢٨٦.

سياسة النفس العاقلة

فقد علمنا الآن أن النفس العاقلة إذا عرفت شرف نفسها، وأحست بمرتبتها من الله عَزَّوَجَلَّ أحسنت خلافته في ترتيب هذه القوىٰ وسياستها، ونهضت بالقوة التي أعطاها الله تعالىٰ إلىٰ محلّها من كرامة الله تعالىٰ ومنزلتها من العلو والشرف، ولم تخضع للسبع ولا للبهيمة، بل تقوّم النفس الغضبية التي سميناها سبعية، وتقودها إلىٰ الأدب بحملها علىٰ حُسن طاعتها، ثم تستنهضها في أوقات هيجان هذه النفس البهيمية وحركتها إلىٰ الشهوات، حتىٰ تقمع بهذه سلطان تلك وتستخدمها في تأديبها، وتستعين بقوة هذه علىٰ تأبي تلك، وذلك أن هذه النفس الغضبية قابلة للأدب، قوية علىٰ قمع الأخرىٰ كما قلنا، وتلك النفس البهيمية عادمة للأدب غير قابلة له.

ومن وصل من هذه الآداب إلىٰ مرتبة يُعتدّ بها واكتسب بها الفضائل التي عددتها فقد وجب عليه تأديب غيره وإفاضة ما أعطاه الله علىٰ أبناء جنسه.[1]

فصل في تأديب الأحداث والصبيان خاصة

ولذلك قلنا: إن أول ما ينبغي أن يُتفرس في الصبي، ويستدل به علىٰ عقله: الحياء، فإنه يدل علىٰ أنه قد أحس بالقبيح، ومع إحساسه به هو يحذره ويتجنبه، ويخاف أن يظهر منه أو فيه، فإذا نظرت إلىٰ الصبي فوجدته مستحيياً مطرقاً بطرفه إلىٰ الأرض، غير وقاح الوجه ولا محدق إليك، فهو أول دليل نجابته، والشاهد لك علىٰ أن نفسه قد أحست بالجميل والقبيح، وأن حياءه هو انحصار نفسه خوفاً من قبيح يظهر منه، وهذا ليس بشيء أكثر من إيثار الجميل والهرب من القبيح بالتمييز والعقل، وهذه النفس مستعدة للتأديب، صالحة للعناية، لا يجب أن تُهمل ولا تترك، ومخالطة الأضداد الذين يفسدون بالمقارنة والمداخلة، وإن كانت بهذه الحال من الاستعداد لقبول الفضيلة، فإن نفس الصبي ساذجة لم تنتقش بعد بصورة، وليس لها رأي ولا عزيمة تميلها من شيء إلىٰ شيء، فإذا نُقشت بصورة وقبلتها نشأ عليها واعتادها.[2]

---

(١) المرجع السابق، ص٢٨٨.

(٢) المرجع السابق، ص٢٨٩.

دستور تهذيب الأولاد

فالأولى بمثل هذه النفس أن تنبه أبداً على حب الكرامة، ولا سيما ما يحصل له منها بالدين دون المال، وبلزوم سننه ووظائفه، ثم يمدح الأخيار عنده، ويمدح هو في نفسه إذا ظهر شيء جميل منه، ويخوّف من المذمة على أدنى قبيح يظهر منه، ويؤاخذ باشتهائه للمآكل والمشارب والملابس الفاخرة، ويُزيَّن عنده خلف النفس والترفع عن الحرص في المآكل خاصة، وفي اللذات عامة.

ويحبب إليه إيثار غيره على نفسه بالغذاء والاقتصار على الشيء المعتدل والاقتصاد في التماسه، ... وذلك أن الصبي في ابتداء نشوئه يكون على الأكثر قبيح الأفعال، إما كلها، وإما أكثرها، فإنه يكون كذوباً يُخبر ويحكي ما لم يسمعه ولم يره، ويكون حسوداً سروقاً نماماً لجوجاً ذا فضول ومحك وكياد، أضرّ شيء بنفسه وبكل أمر يلابسه، ثم لا يزال به التأديب والسن والتجارب، حتى ينتقل في أحوال بعد أحوال، فلذلك ينبغي أن يؤخذ ما دام طفلاً بما ذكّرناه ونذكّره...

ثم يُمدح بكلِّ ما يظهر منه من خُلقٍ جميل وفِعل حسنٍ، ويُكرم عليه، فإن خالف في بعض الأوقات ما ذكرته فالأولى أن لا يوبخ عليه، ولا يكاشف بأنه أقدم عليه، بل يُتغافل عنه تغافل من لا يخطر بباله أنه قد تجاسر على مثله ولا همَّ به، ولا سيما إن ستره الصبي، واجتهد في أن يخفي ما فعله عن الناس، فإن عاد فليُوبخ عليه سِراً.[1]...

وأحوج الصبيان إلى هذا الأدب أولاد الأغنياء والمترفين، ... وينبغي أن يؤذن له في بعض الأوقات أن يلعب لعباً جميلاً، ليستريح إليه من تعب الأدب، ولا يكون في لعبه ألم ولا تعب شديد، ويعوَّد طاعة والديه، ومعلميه ومؤدبيه، وأن يَنظر إليهم بعين الجلالة والتعظيم ويهابهم.[2]

وهذه الآداب النافعة للصبيان، وهي للكبار من الناس أيضاً نافعة، ولكنها للأحداث أنفع؛ لأنها تعوّدهم محبة الفضائل، وينشأون عليها، فلا يثقل عليهم تجنب

---

(١) المرجع السابق، ص٢٩٠.

(٢) المرجع السابق، ص٢٩٣.

الرذائل، ويسهّل عليهم بعد ذلك ما ترسمه الحكمة جميعها، وتحده الشريعة والسنة، ويعتادون ضبط النفس عما تدعوهم إليه من اللذات القبيحة، وتكفهم عن الانهماك في شيء منها، والفكر الكثير فيها، وتسوقهم إلى مرتبة الفلسفة العالية، وترقّيهم إلى معالي الأمور.[1] ...

* * *

خامساً: "رسالة مراتب العلوم"[2] و"رسالة في مداواة النفوس"[3] لابن حزم الظاهري

١ - التعريف بـ"ابن حزم":

ابن حزم هو علي بن أحمد بن سعيد الظاهري، ولد في قرطبة في بيت عز وجاه، عام ٣٨٤هـ، حيث كان أبوه من وزراء الدولة العامرية في الأندلس. عرف ابن حزم بأنه فقيه وفيلسوف وكاتب وشاعر. عاش ابن حزم في فترة اضطراب شديد في أحوال الدولة الإسلامية في الأندلس؛ إذ انهارت الدولة الأموية، وتقسمت بلاد الخلافة إلى أكثر من عشرين من دويلات الطوائف المتناحرة التي فقدت كثيراً من معايير الحياة الإسلامية، واستعان بعضها على بعضها الآخر بالممالك النصرانية. وربما كان ذلك سبباً في حدته وقسوته التي أوقعته في المحن المتتالية.

كان شديد الانتقاد للعلماء في زمنه، بسبب ميلهم إلى التقليد، فتمالأوا على بغضه، وتضليله، وتحذير السلاطين من فتنته، فتعرض للإقصاء والمحن، وحُرقت كتبه، توفي عام ٤٥٦هـ. ومن أشهر المؤلفات التي وصلتنا: المحلّى، والفِصَل في الملل

---

(١) المرجع السابق، ص٢٩٤.

(٢) ابن حزم، أبو محمد علي بن سعيد. **رسائل ابن حزم الأندلسي**، تحقيق: إحسان عباس، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٧م، ج٤، ص٦١-٩٠.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٣٣٣-٤١٥.

والأهواء والنِّحَل، وجمهرة الأنساب، وجوامع السيرة، والإحكام لأصول الأحكام، ومجموعة كبيرة من الرسائل جمعت في أربعة مجلدات، ومن هذه الرسائل: التقريب لحد المنطق، ومراتب العلوم، ومداواة النفوس، وغيرها.

٢- التعريف بـ"مراتب العلوم و"مداواة النفوس":

رسالة "مراتب العلوم"، رسالة تقع في نحو ستة آلاف كلمة (٢٥ صفحة). أما رسالة في مداواة النفوس فتقع في نحو ١٨ ألف كلمة، في (٧٠) صفحة، طبعت ضمن رسائل ابن حزم.

٣- رسالة مراتب العلوم:

أما بعد: فإن الله تعالى كرَّم بني آدم وفضّلهم على كثير ممن خلق، وخصَّهم على سائر خليقته بالتمييز الذي مكّنهم به من التصرف في العلوم والصناعات. فواجبٌ على المرء ألا يضيع وديعة خالقه عنده، وأن لا يهمل عطية باريه لديه، بل فرضٌ عليه أن يصونها باستعمالها فيما له خلق، وأن يحوطها في تصريفها فيما دعي إليه.

وبعد: فإن لكل مقام مقالاً، ولكل زمان حالاً، وإن السالفين قبلنا كانت لهم علومٌ يواظبون على تعليمها، ويورثها الماضي منهم الآتي. ثم إن من تلك العلوم ما بقي وبقيت الحاجة إليه، ومنها ما دُرس رسمه، ودثرت أعلامه، وانبتَّ جملةً فلم يبقَ إلا اسمه. ... فلا وجه للاشتغال بعلم قد دثر وعدم، وإنما الواجب أن يتهمم المرء بالعلوم الممكن تعلمها التي قد يُنتفع بها في الوقت، وأن يؤثر منها بالتقديم ما لا يتوصل إلى سائره إلا به، ثم الأهم فالأهم والأنفع فالأنفع.[١]

وباليقين يدري كل ذي لب سليم أنه لا يتوصل إلى العلوم إلى بطلب، ولا يكون الطلب إلا بسماع وقراءة وكتاب، لا بدَّ من هذه الثلاث خصال، وإلا فلا سبيل دونها إلى شيء من العلوم ألبتة. فإذ ذلك كذلك فلنتكلم -بعون الله تعالى- على وجه التوصل

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٦١- ٦٢.

إلى العلوم، وبيان أفضلها صفةً وأعلاها قدراً، والذي بالناس إليه الضرورة الماسة، والفاقة الشديدة، والحد الذي لا يجزئ منه ما دونه، والنهاية التي لا وراء لها منه.

فالواجب على من ساس صغار ولدانه وغيرهم أن يبدأ منذ أول اشتدادهم وفهمهم ما يخاطبون به، وقوتهم على رجع الجواب -وذلك يكون في خمس سنين أو نحوها من مولد الصبيّ- فيسلمهم إلى مؤدب في تعليم الخط وتأليف الكلمات من الحروف، فإذا درب الغلام في ذلك، درس وقرأ. والحدُّ الذي لا ينبغي أن يقتصر المعلم على أقلَّ منه أن يكون الخط قائم الحروف، بيناً صحيح التأليف الذي هو الهجاء، فإن الخط إن لم يكن هكذا لم يقرأ إلا بتعب شديد.

وأما التزيد في حسن الخط؛ فليس هو فضيلة بل لعله داعية إلى التعلق بالسلطان، فيفني دهره إما في ظلم الناس، وإما في تسويد القراطيس بتواقيع بعيدة من الحق، مشحونةٍ بالكذب والباطل، فيضيع زمانه باطلاً، وتخسر صفقته، ويندم حين لا ينفعه الندم، وكان كإنسان ملك مسكاً كثيراً فترك أن يصرفه في التطييب به ومداواة النفوس بريحه وفغوته[1] وأقبل يطيِّب به البهائم، ويصبه في الطريق حتى فني في غير فائدة. فهذا حدّ تعلم الكتاب.[2]

ولقد حدثني شيخنا يونس بن عبد الله القاضي قال: سمعت يحيى بن مجاهد الفزاري الزاهد يقول: هذا كان أوان طلبي للعلم؛ إذ قوي فهمي واستحكمت إرادتي. فقلت له: فعلّمنا الطريق، لعلنا ندرك ذلك بِوَصاتك، في استقبال أعمارنا قال: نعم كنت آخذ من كل علم طرفاً، فإن سماع الإنسان قوماً يتحدثون وهو لا يدري ما يقولون غمة عظيمة، أو كلاماً هذا معناه. قال أبو محمد: ولقد صدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ.[3]

ودعائم العلم مشهورة مستحكمة يؤثر بها العلم على سائر أعراض الدنيا من اللذات والمال والصوت، ثم قصدٌ إلى عين العلم، ليخرج به عن جملة أشباه البهائم

---

(١) الفغوة: الرائحة الطيبة.

(٢) المرجع السابق، ج٤، ص٦٤- ٦٥.

(٣) المرجع السابق، ج٤، ص٧١-٧٢.

فقط، لا ليجعله مكتسبه ولا ليمدح به، وذكاء وفهمٌ وبحث وذكر وصبر على كل ذلك، والتعب فيه وإنفاق المال عليه والاستكثار من الكتب، فلن يخلو كتاب من فائدة وزيادة علم يجدها فيه إذا احتاج إليها، ولا سبيل إلى حفظ المرء لجميع علمه الذي يختص به. فإذ لا سبيل إلى ذلك، فالكتب نعم الخازنة له إذا طلب، ولولا الكتب لضاعت العلوم ولم توجد.[1]

فهذه الأفانين هي التي يطلق عليها في قديم الدهر وحديثه اسم العلم والعلوم.

وعند التحقيق وصحة النظر فكل ما عُلِمَ فهو علم؛ فيدخل في ذلك علم التجارة والخياطة والحياكة وتدبير السفن وفلاحة الأرض وتدبير الشجر ومعاناتها وغرسها والبناء وغير ذلك. إلا أن هذه إنما هي الدنيا خاصة، فيما بالناس إليه الحاجة في معايشهم. والعلوم التي قدمنا، الغرض منها التوصل إلى الخلاص في المعاد فقط، فلذلك استحقت التقديم والتفضيل، وبالله تعالى التوفيق.[2]

٤- مختارات من رسالة في مداواه النفوس:[3]

أما بعد: فإني جمعت في كتابي هذا معاني كثيرة، أفادنيها واهبُ التمييز تعالى، بمرور الأيام وتعاقب الأحوال، بما منحني عَزَّوَجَلَّ من التهمم بتصاريف الزمان، والإشراف على أحواله، حتى أنفقت في ذلك أكثر عمري، وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له، والفكرة فيه؛ على جميع اللذات التي تميل إليها أكثر النفوس، وعلى الازدياد من فضول المال، وزممتُ كل ما سبرت من ذلك بهذا الكتاب، لينفع الله تعالى به من يشاء من عباده، ممن يصل إليه بما أتعبت فيه نفسي، وأجهدتها فيه، وأطلت فيه فكري، فيأخذه عفواً، وأهديته إليه هنيئاً.[4]

---

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٧٧.

(٢) المرجع السابق، ج٤، ص٨١.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٣٣٣-٤١٥.

(٤) المرجع السابق، ج١، ص٣٣٤.

١٨- لو لم يكن من فضل العلم إلا أن الجهال يهابونك ويجلونك وأن العلماء يحبونك ويكرمونك، لكان ذلك سبباً إلى وجوب طلبه، فكيف بسائر فضائله في الدنيا والآخرة؟! ولو لم يكن من نقص الجهل إلا أن صاحبه يحسد العلماء، ويغبط نظراءه من الجهال، لكان ذلك سبباً إلى وجوب الفرار عنه، فكيف بسائر رذائله في الدنيا والآخرة؟![1]

٣٨- منفعة العلم في استعمال الفضائل عظيمة وهو أنه يعلم حسن الفضائل فيأتيها ولو في الندرة، ويعلم قبح الرذائل فيجتنبها ولو في الندرة، ويسمع الثناء الحسن فيرغب في مثله، والثناء الرديء فينفر منه، فعلى هذه المقدمات يجب أن يكون للعلم حصة في كل فضيلة، وللجهل حصة في كل رذيلة.

٣٩- وقد رأيت من غمار العامة من يجري من الاعتدال وحميد الأخلاق إلى ما لا يتقدمه فيه حكيم عالم رائض لنفسه، ولكنه قليل جداً، ورأيت ممن طالع العلوم وعرف عهود الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ووصايا الحكماء وهو لا يتقدمه في خبث السيرة وفساد العلانية والسريرة، شرار الخلق وهذا كثير جداً، فعلمت أنهما مواهب وحرمان من الله تعالى.[2]

* * *

سادساً: "تعليم المتعلم طريق التعلم" لبرهان الدين الزرنوجي[3]

١- التعريف بـ"الزرنوجي":

لا نعرف الكثير عن برهان الدين الزرنوجي، فأصله وتعليمه ورحلاته مجهولة، ورجّح بعض الباحثين أنه ولد عام ٥٣٩هـ، في بلدة زارنوج، من بلاد

(١) المرجع السابق، ج١، ص٣٤٣.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٣٤٦.

(٣) الزرنوجي، برهان الدين إبراهيم. **تعليم المتعلم طريق التعلم**، الخرطوم: الدار السودانية للكتب، ط١، ٢٠٠٤م.

تركستان. ويعتقد أنه توفي في بخارىٰ نحو سنة٦٢٠هـ. لم يعرف له غير كتاب (تعليم المتعلم طريق التعلم)، حيث أصبحت شهرة الكتاب تُعرِّف بالمؤلف.

تميز العصر الذي عاش فيه الزرنوجي وهو القرن السادس الهجري بالفتن الداخلية نتيجة التنازع علىٰ السلطة، والحروب الخارجية مع التتار والصليبيين. لكن الحركة العلمية لم تتوقف، بل ظهر كثير من العلماء الأفذاذ في مختلف أقطار العالم الإسلامي.

٢- التعريف بـ"تعليم المتعلم طريق التعلم":

هو كتاب صغير الحجم يقع في نحو (٥٠) صفحة (١٢٠٠٠) كلمة، وقد نال شهرة ملموسة لدىٰ الباحثين الأوروبيين، فترجم إلىٰ اللاتينية والألمانية والإنجليزية والتركية، كما نال اهتماماً جيداً في العالم العربي والإسلامي، ونوّه الباحثون بقيمة المبادئ التربوية التي تضمنها الكتاب، وهي تجد ما يقابلها في الدراسات النفسية والتربوية الحديثة.

ومن ميزات الكتاب كذلك أنه يخاطب مرحلة تعليمية متقدمة حيث يتمكن فيها المتعلم من اختيار أستاذه، وعلومه، وكتبه، وشريكه، والوعي علىٰ العوامل التي تعين علىٰ توفر أفضل متطلبات التعلم الجيد.

٣- مختارات من كتاب "تعليم المتعلم طريق التعلُّم":

فلما رأيت كثيراً من طلاب العلم في زماننا يجدّون إلىٰ العلم ولا يصلون، ومِنْ منافعِه وثمراتِه يُحرَمون، لما أنهم أخطؤوا طرائقه وتركوا شرائطه، وكل من أخطأ الطريق ضلَّ، ولا ينال المقصود قلَّ أو جلّ، أردت وأحببت أن أبيِّن لهم طريق التعليم، علىٰ ما رأيت في الكتب، وسمعت من أساتذتي أولي العلم والحكم، رجاء الدعاء لي من الراغبين فيه المخلصين بالفوز والخلاص في يوم الدين. بعدما استخرت الله تعالىٰ فيه، وسميته: تعليم المتعلم طريقَ التعلُّم.[١]

---

(١) المرجع السابق، ص٥.

وجعلته فصولاً: في ماهية العلم والفقه وفضله، في النية حال التعلم، في اختيار العلم والأستاذ والشريك، في تعظيم العلم وأهله، في الجد والمواظبة والهمة، في بداية السبق وقدره وترتيبه، في التوكل، في وقت التحصيل، في الشفقة والنصيحة، في الاستفادة، في الورع في حالة التعلم، فيما يورث الحفظ، وفيما يورث النسيان، فيما يجلب الرزق، وما يمنعه، وما يزيد في العمر وما ينقص.[١]

قال رسول الله ﷺ: "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة". اعلم أنه لا يفترض على كلِّ مسلمٍ طلب كلِّ علمٍ، وإنما يُفترض عليه طلب علم الحال، فإنه يقال: أفضل العلم علم الحال، وأفضل العمل حفظ الحال. ويُفترض على المسلم طلب ما يقع له في حاله، في أي حالٍ كان، فإنه لا بد له من الصلاة فيُفترض عليه عِلْم ما يقع له في صلاته بقدر ما يؤدي به فرض الصلاة، ويجب عليه بقدر ما يؤدي به الواجب؛ لأن ما يُتوصل به إلى إقامة الواجب يكون واجباً. وكذلك في الصوم، والزكاة إن كال له مال، والحج إن وجب عليه، وكذلك في البيوع إن كان يتجر.[٢]

وأما تفسير العلم؛ فهو صفة يتحلَّى بها المذكور لمن قامت هي به كما هو، والفقه معرفة دقائق العلم مع نوع علاج. قال أبو حنيفة رحمة الله عليه: الفقه معرفة النفس ما لها وما عليها. وقال: "ما العلم إلا للعمل به، والعمل به ترك العاجل للآجل."[٣]

وينبغي أن ينوي المتعلم بطلب العلم رضاء الله والدار الآخرة، وإزالة الجهل عن نفسه، وعن سائر الجهال، وإحياءَ الدين، وإبقاء الإسلام، فإنَّ بقاءَ الإسلام بالعلم، ولا يصح الزهد والتقوى مع الجهل.[٤]...

وينوي به الشكر على نعمة العقل، وصحة البدن، ولا ينوي به إقبال الناس عليه، ولا استجلاب حطام الدنيا، والكرامة عند السلطان وغيره...

---

(١) المرجع السابق، ص٦-٧.

(٢) المرجع السابق، ص٨.

(٣) المرجع السابق، ص١٣.

(٤) المرجع السابق، ص١٤.

اللهم إلا إذا طلب الجاه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنفيذ الحق وإعزاز الدين لا لنفسه وهواه، فيجوز ذلك بقدر ما يقيم به الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وينبغي لطالب العلم أن يتفكّر في ذلك، فإنه يتعلم العلم بجهد كثير فلا يصرفه إلى الدنيا الحقيرة القليلة الفانية.[1]

ينبغي لطالب العلم أن يختار من كلِّ علمٍ أحسنَه، مما يحتاج إليه في أمر دينه في الحال، ثم ما يحتاج إليه من المآل، فيقدم عليه التوحيد والمعرفة، ويعرف الله تعالى بالدليل، فإنما إيمان المقلد وإن كان صحيحاً عندنا، لكن يكون آثماً بترك الاستدلال.

ويختار العتيق دون المحدثات، قالوا: عليكم بالعتيق وإياكم والمحدثات، وإياك أن تشتغل بهذا الجدل الذي ظهر بعد انقراض الأكابر من العلماء، فإنه يبعد الطالب عن الفقه، ويضيع العمر، ويورث الوحشة والعداوة، وهو من أشراط الساعة، وارتفاع العلم والفقه، كذا ورد في الحديث.

أما اختيار الأستاذ؛ فينبغي أن يختار الأعلم والأورع والأسنَّ، كما اختار أبو حنيفة حماد ابن أبي سليمان بعد التأمل والتفكّر، وقال: وجدته شيخاً وقوراً حليماً صبوراً في الأمور. وقال: ثبتٌ عند حماد بن أبي سليمان فنبتُّ.[2]

وأما اختيار الشريك؛ فينبغي أن يختار المجدّ والورع وصاحب الطبع المستقيم المتفهم، ويفر من الكسلان والمعطل والمكثار والمفسد والفتان.[3]

اعلم أن طالب العلم لا ينال العلم ولا ينتفع به إلا بتعظيم العلم وأهله، وتعظيم الأستاذ وتوقيره، فقد قيل: ما وصل من وصل إلا بالحرمة، وما سقط من سقط إلا بترك الحرمة، وقيل: الحرمة خير من الطاعة، ألا ترى أن الإنسان لا يكفر بالمعصية، وإنما يكفر باستخفافها وبترك الحرمة، ومن تعظيم العلم تعظيم المعلم، ...

---

(١) المرجع السابق، ص١٥-١٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٩-٢٠.

(٣) المرجع السابق، ص٢٣.

فإن من علمك حرفاً واحداً مما تحتاج إليه في الدين فهو أبوك في الدين.[1] ...

وكان القاضي الإمام فخر الدين الأرسابندي رئيس الأئمة في مرو، وكان السلطان يحترمه غاية الاحترام، وكان يقول: إنما وُجدت بهذا المنصب بخدمة الأستاذ، فإني كنت أخدم الأستاذَ القاضي الإمام أبا زيد الدبوسي، وكنت أخدمه وأطبخ طعامه ثلاثين سنة، ولا آكل منه شيئاً.[2]

وينبغي لطالب العلم أن لا يختار نوع علمٍ بنفسه، بل يفوض أمره إلى الأستاذ، فإنَّ الأستاذ قد حصل له التجارب في ذلك، فكانَ أعرف بما ينبغي لكل أحد، وما يليق بطبيعته، ... وكان يُحكى أن محمد بن إسماعيل البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان بدأ بكتابة الصلاة على محمد بن الحسن، فقال له محمد بن الحسن: اذهب وتعلم علمَ الحديث، لما رأى أن ذلك أليق بطبعه، فطلبَ علم الحديث فصار فيه مقدماً على جميع أئمة الحديث.[3]

ثم لا بد من الجد والمواظبة والملازمة لطالب العلم، وإليه الإشارة في القرآن بقوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ١٢﴾ [مريم: ١٢] وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]...

قيل: من طلب شيئاً وجدّ وجَدَ، ومن قرع الباب ولجّ ولَجَ. وقيل: بقدر ما تتعنى تنال ما تتمنى، وقيل: يحتاج في التعلّم والتفقّه إلى الجِدِّ ثلاثة: المتعلم والأستاذ والأب، إن كان في الأحياء.[4]

وينبغي لطالب العلم، ألا يشتغل بشيءٍ آخر غير العلم، ولا يُعرض عن الفقه. قال محمد ابن الحسن: إن صناعتنا هذه من المهد إلى اللحد، فمن أراد أن يترك علمنا هذا ساعةً فليتركه الساعة.[5]

---

(١) المرجع السابق، ص٢٥-٢٦.

(٢) المرجع السابق، ص٢٧.

(٣) المرجع السابق، ص٣٢.

(٤) المرجع السابق، ص٣٤-٣٥.

(٥) المرجع السابق، ص٦٢-٦٥.

وينبغي أن يكون طالب العلم مستفيداً في كل وقت حتى يحصل له الفضل، وطريق الاستفادة أن يكون معه في كل وقت محبرة، حتى يكتب ما يسمع من الفوائد العلمية، فقد قيل: من حفظ فرّ، ومن كتب قرَّ، وقيل: العلمُ ما يؤخذ من أفواه الرجال؛ لأنهم يحفظون أحسن ما يسمعون، ويقولون: أحسن ما يحفظون.[1]

* * *

سابعاً: كتاب "تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم" لبدر الدين ابن جماعة[2]

١- التعريف بـ"ابن جماعة":

هو أبو عبد الله بدر الدين محمد بن أبي بن جماعة الكناني الشافعي، ولد في حماة في شمال سورية سنة ٦٣٩هـ. أبوه برهان الدين ابن جماعة من كبار العلماء، وكذلك جده. برز ابن جماعة في مرحلة مبكرة بسبب مهارته، وتمكنه في دراسة العلوم القرآنية، والحديث، والتاريخ، والفقه. تبوأ إثر ذلك مناصب عليا في الشام ومصر، وكان مرجعاً في فقه الشافعية.

٢- التعريف بـ"تذكرة السامع":

يضم كتاب تذكرة السامع خمسة أبواب، هي: فضل العلم والعلماء، وفضل تعليم العلم وتعلّمه، وأدب العالم في نفسه ومراعاته لطالبه ودرسه، وآداب المتعلم في نفسه ومع شيخه ودرسه، والأدب مع الكتب، وآداب سكنى المدارس. ويصنف الكتاب في المدرسة الحديثية الفقهية.

يعد الكتاب من أهمّ الكتب المتخصصة في التراث التربوي الفقهي. يقع النص الأصلي للكتاب، دون التحقيق والتدقيق، في نحو ١٨٠٠٠ كلمة (٧٢)

---

(١) المرجع السابق، ص٧٣.

(٢) بدر الدين ابن جماعة، أبو عبد الله محمد بن أبي إسحاق. **كتاب تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم**، عناية: محمد بن مهدي العجمي، بيروت: دار البشائر الإسلامية، ط٣، ٢٠١٢م.

صفحة. وتأتي أهميته بوصفه من أطول النصوص التي تختص مباشرة بالتعليم والتربية، وفيما يقدمه من بيانات عن العملية التعليمية في القرنين السابع والثامن الهجريين. توفي سنة ٧٣٣هـ.

٣- مختارات من كتاب "تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم":

إن الاشتغال بالعلم لله أفضل من نوافل العبادات البدنية، من صلاة، وصيام، وتسبيح، ودعاء ونحو ذلك؛ لأن نفع العلم يعمّ صاحبه والناس، والنوافل البدنية مقصورة على صاحبها؛ ولأن العلم مصحِّحٌ لغيره من العبادات، فهي تفتقر إليه وتتوقف عليه، ولا يتوقف هو عليها؛ ولأن العلماء ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والتسليم، وليس ذلك للمتعبدين؛ ولأن طاعة العالم واجبة على غيره فيه؛ ولأن العلم يبقى أثره بعد موت صاحبه، وغيره من النوافل تنقطع بموت صاحبها؛ ولأن في بقاء العلم إحياء الشريعة وحفظ معالم الملة.(١)

في آدابه في نفسه: وهو اثنا عشر نوعاً:

العاشر: دوام الحرص على الازدياد بملازمة الجد والاجتهاد والمواظبة على وظائف الأوراد من العبادة، والاشتغال والإشغال قراءة وإقراء، ومطالعة وفكراً، وتعليقاً وحفظاً، وتصنيفاً وبحثاً. ولا يضيع شيئاً من أوقات عمره في غير ما هو بصدده من العلم والعمل، إلا بقدر الضرورة من أكل أو شرب أو نوم أو استراحة لملل أو أداء حق زوجة أو زائر، أو تحصيل قوت وغيره، مما يحتاج إليه.(٢)

الثاني عشر: الاشتغال بالتصنيف والجمع والتأليف، لكن مع تمام الفضيلة، وكمال الأهلية، فإنه يطلع على حقائق الفنون ودقائق العلوم للاحتياج إلى كثرة التفتيش والمطالعة والتنقيب والمراجعة، وهو كما قال الخطيب البغدادي: يثبّتُ الحفظَ ويذكي القلب، ويشحذ الطبع، ويجيد البيان، ويكسب جميل الذكر، وجزيل الأجر،

(١) المرجع السابق، ص٤٣-٤٤.

(٢) المرجع السابق، ص٥٧.

ويخلده إلى آخر الدهر.

والأولى أن يعتني بما يعم نفعه وتكثر الحاجة إليه، وليكن اعتناؤه بما لم يُسبق إلى تصنيفه، متحرياً إيضاح العبارة في تأليفه، معرضاً عن التطويل الممل، والإيجاز المخل، مع إعطاء كل مصنَّف ما يليق به، ولا يُخرج تصنيفه من يده قبل تهذيبه، وتكرير النظر فيه وترتيبه.[1]

الفصل الثالث: في أدب العالم مع طلبته مطلقاً في حلقته

وهو أربعة عشر نوعاً:

السادس: أن يحرص على تعليمه وتفهيمه ببذل جهده وتقريب المعنى له، من غير إكثار لا يحتمله ذهنه، أو بسط لا يضبطه حفظه، ويوضح لمتوقف الذهن العبارة، ويحتسب إعادة الشرح له وتكراره. ويبدأ بتصوير المسائل ثم يوضحها بالأمثلة.[2]

السابع: إذا فرغ الشيخ من شرح درس فلا بأس بطرح مسائل تتعلق به على الطلبة، يمتحن فهمهم وضبطهم لما شرح لهم، فمن ظهر استحكام فهمه له بتكرار الإصابة شكره، ومن لم يفهمه تلطّف في إعادته له. وينبغي للشيخ أن يأمر الطلبة بالمرافقة في الدروس، ...، وبإعادة الشرح بعد فراغه فيما بينهم، ليثبت في أذهانهم ويرسخ في أفهامهم، ولأنه يحثهم على استعمال الفكر ومؤاخذة النفس بطلب التحقيق.[3]

الباب الثالث

الفصل الأول: في آدابه في نفسه

فيه عشرة أنواع:

نقل الخطيب البغدادي في الجامع عن بعضهم، قال: "لا ينال هذا العلم إلا من عطّل دكانه، وخرب بستانه، وهجر إخوانه، ومات أقرب أهله فلم يشهد جنازته"

---

(١) المرجع السابق، ص٥٩-٦٠.

(٢) المرجع السابق، ص٧٥.

(٣) المرجع السابق ص٧٦-٧٧.

وهذا كله وإن كانت فيه مبالغة، فالمقصود به أنه لا به فيه من جمع القلب واجتماع الفكر. وقيل: أمر بعض المشايخ طالباً له بنحو ما رآه الخطيب فكان آخر ما أمره به أن قال: اصبغ ثوبك كيلا يشغلك فكر غسله. ومما يقال عن الشافعي أنه قال: لو كُلفت شراء بصلة، ما فهمت مسألة.[1]

قال الخطيب: ويُستحبُّ للطالب أن يكون عزباً ما أمكنه، لئلا يقطعه الاشتغال بحقوق الزوجية وطلب المعيشة عن إكمال الطلب. ... وبالجملة فترك التزويج لغير المحتاج إليه أو غير القادر عليه أولى، لا سيما للطالب الذي رأس ماله جمع الخاطر، وإجمام القلب واستعمال الفكر.[2]

الباب الرابع
في الآداب مع الكتب التي هي آلة العلم

فيه أحد عشر نوعاً:

الأول: ينبغي لطالب العلم أن يعتني بتحصيل الكتب المحتاج إليها ما أمكنه شراء، وإلا فإجارة أو عارية؛ لأنها آلة التحصيل، ... وإذا أمكن تحصيلها شراء لم يشتغل بنسخها، ولا ينبغي أن يشتغل بدوام النسخ إلا فيما يتعذر عليه تحصيله، لعدم ثمنه أو أجرة استنساخه.. ولا يستعير كتاباً مع إمكان شرائه أو إجارته.

الثاني: يستحب إعارة الكتب لمن لا ضرر عليه فيها، ممن لا ضرر منه بها.[3]

الرابع: إذا استعار كتاباً فينبغي له أن يتفقّده عند إرادة أخذه وردّه، وإذا اشترى كتاباً تعهد أوله وآخره ووسطه، وترتيب أبوابه وكراريسه، وتصفح أوراقه، واعتبر صحته.[4]

---

(١) المرجع السابق، ص٨٧-٨٨.

(٢) المرجع السابق، ص٨٨-٨٩.

(٣) المرجع السابق، ص١٢٦.

(٤) المرجع السابق، ص١٢٩.

الباب الخامس

في آداب سكنى المدارس للمنتهي والطالب لأنها مساكنهم في الغالب

فيه أحد عشر نوعاً:

الخامس: أن لا يشتغل فيها بالمعاشرة والصحبة ويرضى من سكنها بالسكة والحَظْبَةِ، بل يقبل على شأنه وتحصيله وما بنيت المدرسة له، ويقطع العشرة فيها جملة، لأنها تفسد الحال وتضيع المال... واللبيب المحصِّل يجعل المدرسة منزلاً يقضي وطره منه ثم يرتحل عنه... وليطالب نفسه كل يوم باستفادة علم جديد ويحاسبها على ما حصلته فيه، ليأكل مقرَّرَه فيها حلالاً. فإن المدارس وأوقافها لم تجعل لمجرد المقام، ولا لمجرد التعبد بالصلاة والصيام كالخوانك، بل لتكون معينة على تحصيل العلم والتفرغ له والتجرد عن الشواغل في أوطان الأهل والأقارب.(١)

السابع: أن يختار لجواره إن أمكن أصلحهم حالاً وأكثرهم اشتغالاً، وأجودهم طبعاً، وأصونهم عرضاً؛ ليكون معيناً له على ما هو بصدده.(٢)

الحادي عشر: أن يتقدم على المدرس في حضور موضع الدرس، ولا يتأخر إلى بعد جلوسه وجلوس الجماعة... وقد قال بعض السلف: "من الأدب مع المدرس أن ينتظره الفقهاء ولا ينتظرهم."(٣)

* * *

ثامناً: "قناطر الخيرات" لأبي طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي

١ - التعريف بالجيطالي:

هو الشيخ أبو طاهر إسماعيل بن موسى الجيطالي النفوسي، نسبة إلى مدينة جيطال بجبل نفوسة في ليبيا. من أعيان الفقه الإباضي. لا يُعرف تاريخ مولده

(١) المرجع السابق، ص١٤١-١٤٢.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٢.

(٣) المرجع السابق، ص١٤٥-١٤٦.

بالتحديد، ومن المؤكد أنه عاش في النصف الثاني من القرن السابع، وأنه توفي عام ٧٥٠هـ. عُرف بقوة الحافظة، تنقّل بين المدن والقرىٰ لنشر الدعوة، في ربوع الإباضية، وأمضىٰ حياته مدرساً ومربياً. ورغم غزارة علمه إلا أنه لم يشتهر له تلاميذ معروفون. من أهم مؤلفاته: قواعد الإسلام، وشرح نونية أبي نصر في ثلاثة أجزاء في أصول الدين، وكتاب الحساب وقسم الفرائض، وكتاب الحج والمناسك، وتذكرة النسيان وأمان حوادث الزمان، وله مجموع فتاوىٰ ما جمعه من أجوبة الأئمة في ثلاثة أجزاء، وله كتاب مجموع الرسائل، وغيرها. ولعلّ من أهم كتبه قناطر الخيرات في ثلاثة مجلدات.

٢- التعريف بـ"قناطر الخيرات":[١]

يقع في ثلاثة مجلدات، ويضم (١٧) موضوعاً سَمَّىٰ كل موضوع قَنْطرةً، جمع فيها بين أبواب الفقه المعروفة وبعض أبواب السلوك والتربية. والقنطرة الأولىٰ هي قنطرة العلم، وجاءت مادتها في مائتي صفحة من الجزء الأول من الكتاب المحقق. وهي مقسمة علىٰ عشرة أبواب، في بيان فضل العلم، وفي فضل التعلم والتعليم، وفي بيان فرض العين، وفي بيان فضل العلم الذي هو فرض كفاية، وفي بيان حد الفقه والكلام في علم الدين، وفي بيان طرق العلم وتقاسيمه، وفي آداب المتعلم والمعلم، وفي آفات العلم والعلماء السوء، وفي العلامات المميزة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة، وفي بيان العلم المذموم وأسماء العلم المحمود. ويصنف الكتاب في المدرسة الفقهية الإباضية.

منهج المؤلف أقرب ما يكون إلىٰ منهج أبي حامد الغزالي في بيان معاني الإيمان وفلسفة الأخلاق، وتطهير القلوب وتنوير العقول، ويذكر المؤلف في كثير من المواقع أنه ينقل عن الغزالي.

---

(١) الجيطالي، أبو طاهر إسماعيل بن موسىٰ النفوسي. **قناطر الخيرات**، مسقط: دار النهضة للنشر والتوزيع، ط٢، (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م).

٣- مختارات من كتاب "قناطر الخيرات":

أما بعد، فقد انكشف لأرباب القلوب بحقائق الإيمان وأوضح محكمات القرآن، أن لا وصول للعبد إلى السعادة الأبدية إلا بالعلم، وامتثال العبادة الدينية، وهما بضاعة الأولياء، ومنهاج الأقوياء، وهما دين الله القويم، وصراطه المستقيم... ومع ذلك أن الله سبحانه خلق الإنسان ضعيفاً فحمله ثقل الأمانة تكليفاً، وأوجب عليه إتقان حمل تلك الأمانة بالعلم والعمل والتشمير في أداء حقِّها بالجد لا بالكسل ...

قلت: ولما كان الطريق على ما وصفنا من المشقة والمخافة وكثرة العوائق، وبُعد المسافة من الآفات المانعة والمفازات الشاسعة والشعاب والأودية والعقبان المؤذية، رأينا أن نرتب عليها قناطر كي يمكن للسالكين عليها العبور حتى تقضي بهم إن شاء الله تعالى إلى درجات السرور.(١)

ثم اعلم بالتحقيق أنه ليس هذا الطريق في طوله وقصره، وقناطره المرتبة عليه، مثل المسافات التي تسلكها الأنفس فتقطعها بأقدام الأجسام، فيقع قطعها على حسب قوة الأجسام وضعفها، وإنما هو طريق روحاني تسلكه القلوب، فتقطعه بالأفكار على حسب العقائد والبصائر.(٢)...

دعاني رحمكم الله تعالى إلى تمثيل الدنيا بالمفازة وتمثيل الشريعة بالطريق فيها، وتمثيل الفرائض بالقناطر مرتبة موضوعة عليها، وتمثيل أعمالها بالمطايا لأني وجدت ضرب الأمثال يرشق القوب بسهام الموعظة رشقاً لا يليق بغيرها، ولأن ذلك أبلغ في تقريب المعاني إلى العقول.(٣)...

وهذا الكتاب يحتوي على سبعة عشر قنطرة أشرحها إن شاء الله تعالى بالتمام. الأولى: قنطرة العلم وهي تحتوي على مقدمة في بيان العقل، وعشرة أبواب في تفصيل

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٧-٨.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٢٢.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٢٥.

العلم: الأول: في بيان فضله، والثاني: في فضل التعلّم والتعليم، والثالث: في فرض العين، والرابع: في فرض الكفاية، والخامس: في بيان حد الفقه والكلام في علم الدين وبيان علم الآخرة من علم الدنيا، والسادس: في طرق العلم وتقاسيمه، والسابع: في آداب المتعلم والعالم، والثامن: في آفات العلم وعلماء السوء، والتاسع: في بيان جنس العلم المذموم وأسماء العلم المحمود، والعاشر: في العلامات المميزة بين علماء الدنيا والآخرة، وسائر القناطر تأتي على الترتيب المتقدم إن شاء الله تعالى إلى آخر قنطرة، فيكون آخرها صفة الجنة والنار.[1]...

في فضل العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه: وإنما قدمنا بيان العقل على تفصيل أبواب العلم لأنَّ العقل آلة لدرك العلم، وأس للفضائل، وينبوع للآداب، وأصل للتكليف وعماد للدنيا، فالعلم يجري منه مجرى الثمر من الشجر، والنور من الشمس، والرؤية من العين، وشرف العقل مدرك بالضرورة، وكيف لا يشوف ما هو وسيلة إلى السعادة في الدنيا والآخرة، وروي عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: لكلِّ شيءٍ دعامةٌ، ودعامةُ المؤمن عَقْلُه فبقدر عقله تكون عبادته.[2]...

بيان فضل العلم: فأما بيان فضله فعلى خمسة أقسام من الكتاب والسنة والآثار والمعاني والحس.[3]

في فضل التعلم والتعليم: وفي هذا الباب فصلان؛ الأول: في فضل التعلُّم،[4] والثاني: في بيان فضل التعليم.[5]

في بيان فرض العين: اعْلم أنَّ كلَّ العلوم شريفة، ولكل علم منها فضيلة والإحاطة بجميعها محال، ولذلك قال النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ: "من ظنَّ أنَّ للعلم غايةً فقد

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٢٨.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٣١.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٤٦.

(٤) المرجع السابق، ج١، ص٦١.

(٥) المرجع السابق، ج١، ص٦٦.

بخسه حظه ووضعه في غير منزلته التي وصفه الله تعالى بها، حيث يقول: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: ٨٥] وقال سبحانه: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ﴾ إلى قوله: ﴿مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]." وقال بعض الحكماء: ولو كنا نطلب العلم لنبلغ غايته كنا قد بدأنا العلم بالنقيصة، لكنا نطلبه لننتقص كل يوم من الجهل، ونزداد كل يوم من العلم...[١]

في بيان العلم الذي هو فرض كفاية: وقد ذكر الغزالي في كتابه فقال: اعْلم أنَّ الفرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم، ثم قال: والعلوم بالإضافة إلى الغرض الذي نحن بصدده تنقسم إلى: شرعية وغير شرعية، وأعني بالشرعية ما يُستفاد من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين، ولا يرشد العقل إليه، مثل الحساب، ولا ترشد التجربة إليه مثل الطب، ولا السماع، وذلك مثل اللغة، قال: والعلوم التي ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود، وإلى ما هو مذموم، وإلى ما هو مباح.[٢]...

في علم الدين وطريق الآخرة: اعلم أنه قد ذكر الغزالي في كتابه: أن علم طريق الآخرة قسمان:

أحدهما: علم معاملة، وهو علم بأحوال القلب وهو نوعان: محمود ومذموم، فالمحمود منها كالصبر والشكر ... وأما المذموم منها فخوف الفقر وسخط المقدور والغل والحقد والحسد والغش، وطلب العلو، وحب الثناء،... فهذه وأمثالها من صفات القلب مغارس الفواحس ومنابت الأعمال المحظورة، وأضدادها، وهي الأخلاق المحمودة، منبع الطاعات والقربات. فالعلم بحدود هذه الأمور وحقائقها وأسبابها وثمراتها وعلاجها هو علم الآخرة، وهو فرض عين.[٣]...

والقسم الثاني: وهو علم مكاشفة، وهو علم الصديقين والمقربين، وهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته عن صفاته المذمومة، فتنكشف في ذلك

---

(١) المرجع السابق ج١، ص٧٤.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٨١-٨٢.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص٨٩-٩٠.

النور أمور كان يسمع بها من قبل أسمائها ويتوهم لها معاني مجملة غير متضحة، فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله تعالى... إلى غير ذلك مما يطول تفصيله، إذ الناس في معاني هذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات.[1]...

إنَّ طرق العلم محصورة في ثلاثة طرق، وقيل: في أربعة: أحدها: الحِسّ، والثاني: العقل، والثالث: السمع، والرابع: قيل إنه طريق البديهة. فهذه قسمة منحصرة تدور على ابن آدم في الدنيا والآخرة، فلا يسأل العبد في الآخرة إلا عنها، لأنها منحصرة فيما يسأل عنه، فما شاهده ببصره أو سمعه أو أدركه بعقله، فكل علم داخل فيها وعنها يكون. فالبصر هو ما يدرك به جميع المبصرات، والسمع هو ما يسمع به جميع المسموعات من الشرع وغيره، والفؤاد راجع إلى القلب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧]. أي حاضر القلب، والقلب واحد والمراد به العقل، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦] فجمع في هاتين الآيتين ما قدمناه من طرق العلم.[2]...

العلم بالدنيا وأقسامه: والعلم بالدنيا على ثلاثة أقسام: العلم بمنافعها، والعلم بمضارها، والعلم بأسباب المعيشة فيها، وفي لفظ آخر في العلم بالدنيا أُخْبِرنا أن عاقبة نعيمها إلى الزوال، وأخبرنا أن عاقبة عمرانها إلى الخراب، وأخبرنا أن عاقبة عمارها إلى الهلاك.[3]

في آداب المتعلم والمعلم: وهذا الباب ينحصر في فصلين: الفصل الأول في آداب المتعلم، وتنحصر آدابه في عشرة أقسام:

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٨٩-٩٠.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٩٨.

(٣) المرجع السابق، ج١، ص١٠١.

القسم الأول: المبادرة إلى التعلم في أول وقت الإمكان، ويرغب فيه رغبة متحقق لفضائله واثق بمنافعه، ولا يلهيه عن طلبه كثرةُ مال وجِدَة، ولا نفوذ أمرٍ وعلو منزلة، فإن من ينفذ أمره، فهو إلى العلم أحوج، ومن علت منزلته فهو بالعلم أحق.[1]

في وظائف ما على العالم المعلم المرشد من الآداب: اعلم أن للإنسان في علمه أربعة أحوال، كما له ذلك في اقتناء الأموال؛ إذ لصاحب المال حالة استفادة فيكون مكتسباً، وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنياً عن السؤال، وحال إنفاق على نفسه فيكون منتفعاً، وحال بذل لغيره فيكون به سخياً متفضلاً وهو أشرف أحواله. فكذلك العلم يُقتني كالمال، فله حال طلب واكتساب، وحال تحصيل يغني عن السؤال، وحال استبصار وهو التفكر في المحصل والتمتع به، وحال تبصير وتعليم لغيره، وهو أشرف الأحوال، فمن علم وعمل وعلّم فهو الذي يُدعى عظيماً في ملكوت السموات، فإنه كالشمس تضيء لغيرها، وهي مضيئة في نفسها، وكالمسك الذي يطيب وهو طيب، وأما الذي يعلم ولا يعمل به كالدفتر الذي يفيد غيره وهو خال عن العلم، والـمِسَنّ الذي يشحذ غيره ولا يقطع، وكالإبرة التي تكسو غيرها وهي عارية، وكفتيلة المصباح تضيء لغيرها وهي تحترق... ومهما اشتغل بالتعليم فقد تقلد أمراً عظيماً وخطراً جسيماً فليحفظ وظائف آدابه.[2]...

في العلامات المميزة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة: ونعني بعلماء الدنيا: العلماء السوء، وهم الذين قصدُهم من العلم التنعُّم بالدنيا، والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها، وهم الذين وردت فيهم الأخبار والآثار المتقدمة.

ونعني بعلماء الآخرة: العلماء بالله سبحانه العاملين له، فهم الفائزون المقربون يوم القيامة، ولهم علامات منها: أن لا يطلب بعلمه الدنيا، فإن أقل درجات العلم النافع أن يدرك حقارة الدنيا وخستها، وكُدُورَتَها، وانصرامها، ويدرك عظم الآخرة، ودوامها وبقاء نعيمها، وجلالة ملكها، ويعلم أن الدنيا والآخرة متضادتان، وأنهما

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص١٠٢.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص١١٩.

كالضرتين، مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرىٰ، وأنهما كالمشرق والمغرب، مهما قربت من أحدهما بعدت عن الأخرىٰ، وأنهما ككفتي الميزان مهما رجحت إحداهما خفَّت الأخرىٰ، وأنهما كقدحين أحدهما مملوء والآخر فارغ، فبقدر ما تصب في إحداهما كذلك تفرغ من الآخر.[1]...

كمل كتاب قنطرة العلم بحمد الله وحسن عونه يتلوها قنطرة الإيمان والتوحيد إن شاء الله تعالىٰ.[2]

* * *

تاسعاً: "تحفة المودود بأحكام المولود" لابن قيم الجوزية (ابن القيم)[3]

١- التعريف بـ"ابن القيم":

ابن قيم الجوزية هو أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الحنبلي. وقيم الجوزية هو والده، الذي كان قيِّماً في المدرسة الجوزية بدمشق. ولد عام ٦٩١هـ في زُرع، أو في دمشق. أخذ العلم عن والده، وعن شيخ الحنابلة في عصره المجد الحراني، وعن الحافظ الذهبي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وغيرهم. وتتلمذ عليه ابنُه البرهان بن قيم الجوزية، والإمام الحافظ ابن كثير، والإمام ابن رجب، والسبكي، وابن قدامة المقدسي، وغيرهم.

٢- مؤلفاته:

ألف الكثير من الكتب، طُبع منها ما يزيد علىٰ ثلاثين كتاباً منها: زاد المعاد، ومدارج السالكين، وإعلام الموقعين، والصواعق المرسلة، وتحفة المودود

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص١٦٥.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٢٢٧-٢٢٨.

(٣) ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي. **تحفة المودود بأحكام المولود**، تحقيق: عثمان بن جمعة ضميرية، جدّة ومكة المكرمة: مجمع الفقه الإسلامي ودار عالم الفوائد ، (د. ت.).

بأحكام المولود.

يتكون كتاب تحفة المودود بأحكام المولود من سبعة عشر باباً، مرتبة حسب مراحل عمر الطفل، وفي كل منها عدد من الفصول والفوائد. وفيها تفاصيل دقيقة عن مسائل الحمل وتطور نمو الجنين، ثم في مراحل نشأة الإنسان مما يدخل في علم الطب، وعلم نفس النمو. مما يكوِّن برنامجاً لما يمكن تسميته بالتربية الوالدية. ويقع الكتاب في (٥٨٨) صفحة مع التحقيق والهوامش والفهارس، أما مادة النص المجرد؛ فجاءت في نحوي خمسين ألف كلمة، وهو ما يقارب (١٩٠) صفحة. ويصنف الكتاب في المدرسة الطبية، لكن منحاه في بيان الأحكام الشرعية هو المنحى الفقهي الحنبلي. توفي عام ٧٥١هـ.

٣- مختارات من "تحفة المودود بأحكام المولود"

أما بعد: فإن الله سبحانه نوّع أحكامه على الإنسان من حين خروجه إلى هذه الدار إلى حين يستقر في دار القرار، وقبل ذلك وهو في الظلمات الثلاث، كانت أحكامه القدرية جارية عليه، ومنتهية إليه، فلما انفصل عن أمه تعلّقت به أحكامه الأمرية، وكان المخاطب بها الأبوين أو من يقوم مقامهما، في تربيته والقيام عليه، فلله سبحانه فيه أحكامٌ أمَرَ قيِّمَه بها ما دام تحت كفالته، فهو المطالب بها دونه، حتى إذا بلغ حد التكليف تعلّقت به الأحكام وجرت عليه الأقلام.[١]

في استحباب طلب الولد

وقد روى حماد بن سلمة عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي قال: "إن العبد لترفع له الدرجة فيقول: أي رب أنى لي هذا؟! فيقول: باستغفار ولدك لك من بعدك."[٢]

وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: "إذا

(١) المرجع السابق ص٥.

(٢) المرجع السابق، ص١١-١٣.

مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له."[1]

في استحباب بشارة من وُلد له ولد وتهنئته

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [مريم: ٧]. ولما كانت البشارة تسرُّ العبد وتفرحه، استُحِبَّ للمسلم أن يبادر إلىٰ مسَرَّة أخيه، وإعلامه بما يفرحه... فإن فاتتْه البشارة استُحب له تهنئته. والفرق بينهما: أن البشارة إعلام له بما يسرّه، والتهنئة دعاء له بالخير فيه بعد أن علم به.[2]

في استحباب التأذين في أذنه اليمنىٰ والإقامة في أذنه اليسرىٰ

وسرَّ التأذين -والله أعلم- أن يكون أول ما يقرع سمع الإنسان كلماته المتضمنة لكبرياء الرب وعظمته، والشهادة التي أول ما يدخل بها في الإسلام. فكان ذلك كالتلقين له شعارَ الإسلام عند دخوله إلىٰ الدنيا، كما يلقّن كلمة التوحيد عند خروجه منها. وغير مستنكر وصول أثر التأذين إلىٰ قلبه وتأثيره به، وإن لم يشعر، مع ما في ذلك من فائدة أخرىٰ وهي هروب الشيطان من كلمات الأذان، وهو كان يرصده حتىٰ يولد فيقارنه للمحنة التي قدرها الله وشاءها، فيُسمِع شيطانَه ما يضعفُه ويغيظُه أول أوقات تعلقه به.[3]

في بيان مشروعية العقيقة

قال مالك: هذا الأمر الذي لا اختلاف فيه عندنا. وقال يحيىٰ بن سعيد الأنصاري: أدركت الناس وما يدعون العقيقة عن الغلام والجارية. قال ابن المنذر: وذلك أمرٌ معمول به بالحجاز قديماً وحديثاً، ويستعمله العلماء.[4] ...

---

(١) المرجع السابق، ص١٣-١٧.

(٢) المرجع السابق، ص٣٢-٣٣.

(٣) المرجع السابق، ص٣٦-٣٨.

(٤) المرجع السابق، ص٤٥-٤٦.

في بيان حكمة الختان وفوائده

الختان من محاسن الشرائع التي شرعها الله سبحانه لعباده، ويجمل بها محاسنهم الظاهرة والباطنة، فهو مكمل للفطرة التي فطرهم عليها، ولهذا كان من تمام الحنيفية ملة إبراهيم.

وأصل مشروعيته الختان لتكميل الحنيفية، فإن الله عَزَّوَجَلَّ لما عاهد إبراهيم وعده أن يجعله للناس إماماً، ووعده أن يكون أباً لشعوب كثيرة، وأن يكون الأنبياء والملوك من صلبه، وأن يكثر نسله، وأخبره أنه جاعل بينه وبين نسله علامةَ العهد أن يختنوا كل مولود منهم، ويكون عهدي هذا ميسماً في أجساده، فالختان علَمٌ للدخول في ملة إبراهيم.(١)

وقد ذكر في حكمة خفض النساء: أن سارة لما وهبت هاجر لإبراهيم أصابها، فحملت منه، فغارت سارة، فحلفت لتقطعنّ منها ثلاثة أعضاء، فخاف إبراهيم أن تجدع أنفها وتقطع أذُنيها، فأمرها بثقب أذنيها وختانها، وصار ذلك سنة في النساء بَعْدُ. ولا ينكر هذا كما كان مبدأ السعي، سعي هاجر بين جبلين، تبتغي لابنها القوت، وكما كان مبدأ رمي الجمار حصبَ إسماعيل للشيطان لما ذهب مع أبيه، فشرع الله -سبحانه- لعباده تذكرة وإحياءً لسنة خليله، وإقامة لذكره، وإعظاماً لعبوديته، والله أعلم.

الباب الخامس عشر

في وجوب تأديب الأولاد وتعليمهم والعدل بينهم

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦]. قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "علِّموهم وأدِّبوهم." وقال الحسن: "مروهم بطاعة الله وعلموهم الخير." وفي المسند وسنن أبي داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ: "مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرّقوا بينهم في المضاجع" ففي هذا الحديث ثلاثة آداب: أمرهم بها، وضربهم عليها، والتفريق بينهم في المضاجع.(٢)

---

(١) المرجع السابق، ص٢٧٠.

(٢) المرجع السابق، ص٣٢٨-٣٢٩.

وقال عبد الله بن عمر: "أدب ابنك فإنك مسؤول عنه ماذا أدبته، وماذا علمته، وهو مسؤول عن برك وطواعيته لك.[1]

الباب السادس عشر

في فصول نافعة في تربية الأطفال تُحْمَد عواقبها عند الكِبَر

ولا ينبغي أن يشق على الأبوين بكاء الطفل وصراخه، ولا سيما لشربه اللبن إذا جاع، فإنه ينتفع بذلك البكاء انتفاعاً عظيماً، فإنه يروض أعضاءه، ويوسع أمعاءه، ويفسح صدره، ويسخن دماغه، ويحمي مزاجه، ويثير حرارته الغريزية، ويحرك الطبيعة لدفع ما فيها من الفضول، ويدفع فضلات الدماغ من المخاط وغيره.[2]

ومما يحتاج إليه الطفل غاية الاحتياج الاعتناء بأمر خُلُقه، فإنه ينشأ على ما عوده المربي في صغره؛ من حرد وغضب، ولجاج وعجلة، وخفة مع هواه، وطيش وحِدَّة، وجشع، فيصعب عليه في كبره تلافي ذلك. وتصير هذه الأخلاق صفات وهيئات راسخة له، فلو تحرز منها غاية التحرز فضحته -ولا بد- يوماً ما. ولهذا تجد أكثر الناس منحرفة أخلاقهم وذلك من قِبَل التربية التي نشأ عليها.[3]

ومما ينبغي أن يعتمد حال الصبي وما هو مستعد له من الأعمال ومهيأ له منها فيعلم أنه مخلوق له فلا يحمله على غيره ما كان مأذوناً فيه شرعاً. فإنه إن حمله على غير ما هو مستعد له لم يفلح فيه، وفَاتَه ما هو مهيأ له. فإذا رآه حسن الفهم، صحيح الإدراك، جيد الحفظ واعياً، فهذه من علامات قبوله وتهيئه للعلم لينقشه في لوح قلبه ما دام خالياً، فإنه يتمكن فيه ويستقر ويزكو معه، وإن رآه بخلاف ذلك من كل وجه وهو مستعد للفروسية وأسبابها من الركوب والرمي واللعب بالرمح، وأنه لا نفاذ له في العلم، ولم يخلق له مكّنه من أسباب الفروسية والتمرّن عليها، فإنه أنفع له وللمسلمين. وإن رآه بخلاف ذلك، وأنه لم يخلق لذلك ورأى عينه مفتوحة إلى صنعة

---

(١) المرجع السابق، ص٣٣١.

(٢) المرجع السابق، ص٣٤٠.

(٣) المرجع السابق، ص٣٤٩.

من الصنائع، مستعداً لها قابلاً لها، وهي صناعة مباحة نافعة للناس، فليمكنه منها.

هذا كله بعد تعليمه له ما يحتاج إليه في دينه، فإن ذلك ميسر على كل أحد، لتقوم حجة الله على العبد، فإن له على عباده الحجةَ البالغة،كما له عليهم النعمة السابغة والله أعلم.[1]

* * *

عاشراً: "المقدمة" لعبد الرحمن بن خلدون[2]

١- التعريف بابن خلدون:

ابن خلدون هو وليُّ الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد ، ولد في تونس عام ٧٣٢هـ، ونشأ في عائلة تهتم بالعلم والأدب، ونهل مما كان متوفراً من العلم في اللغة العربية، والقرآن، والحديث، والفقه، وغيرها. يعود نسبه إلى حضرموت، من سلالة الصحابي وائل بن حجر.

عُرِفَ عصر ابن خلدون بعدم الاستقرار والفوضى والنزاعات السياسية والمذهبية في شرق العالم الإسلامي وغربه، وفيه بدأت حركة المد الأوروبي، وبدأت مدن المسلمين تخرج إلى أيدي الإسبان.

تنقل في حياته العملية بين بلدان المغرب والأندلس، قبل أن يستقر في مصر، واشتغل في أول عهده بالوظيفة كاتباً وعضواً في المجالس العلمية للسلاطين، وسفيراً، ووزيراً وأميناً للسر. وتوفي عام ٨٠٨هـ.

٢- مؤلفاته:

من أهم مؤلفاته كتاب التاريخ المسمى: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، وكتاب "مقدمة ابن خلدون"، وكتاب: "شفاء السائل لتهذيب المسائل"، وكتاب:

---

(١) المرجع السابق، ص٣٥٣-٣٥٤.

(٢) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي. **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، القاهرة: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٤، ٢٠٠٤م.

"التعريف بابن خلدون ورحلاته شرقاً وغرباً" الذي يُعدُّ السيرة الذاتية لابن خلدون ومذكراته.

لقي كتاب "المقدمة" عناية كثير من الباحثين من المسلمين وغيرهم، تحدث الكتاب عن العمران البشري، والبدوي، والدول والخلافة والملك، والعمران الحضري والبلدان والأمصار، والصنائع والمعاش، في العلوم واكتسابها وتعلّمها. وقد تضمن باب "في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه" تفاصيل فريدة عن الفكر البشري، ومستويات العلم، وأنوع العقول، ومهنة التعليم، واحتلت مادة التعليم في المقدمة نحو (٢٩٦) صفحة، من بين (٩٣٦) صفحة؛ أي ثلث الكتاب.

٣- نصوص مختارة من "المقدمة":

فصل في الفكر الإنساني

اعلم أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ميّز البشر عن سائر الحيوانات بالفكر الذي جعله مبدأ كماله، ونهاية فضله على الكائنات وشرفه؛ وذلك أن الإدراك وهو شعور المدرك في ذاته بما هو خارج عن ذاته، هو خاص بالحيوان فقط من بين سائر الكائنات والموجودات، فالحيوانات تشعر بما هو خارج عن ذاتها، بما ركّب الله فيها من الحواس الظاهرة: السمع والبصر والشم والذوق واللمس، ويزيد الإنسان من بينها أنه يدرك الخارج عن ذاته بالفكر الذي وراء حسه، وذلك بقوى جعلت له في بطون دماغه، ينتزع بها صور المحسوسات، ويجول بذهنه فيها، فيجرد منها صوراً أخرى، والفكر هو التصرف في تلك الصور وراء الحس، وجولان الذهن فيها بالانتزاع والتركيب، وهو معنى الأفئدة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [الملك: ٢٣]. والأفئدة جمع فؤاد، وهو هنا الفكر.

وهو على مراتب: الأولى: تعقُّل الأمور المرتبة في الخارج ترتيباً طبيعياً، أو وضعياً، ليقصد إيقاعها بقدرته، وهذا الفكر أكثره تصورات، وهو العقل التمييزي الذي يحصّل منافعه ومعاشه ويدفع مضاره.

الثانية: الفكر الذي يفيد الآراء والآداب في معاملة أبناء جنسه وسياستهم، وأكثرها تصديقات تحصل بالتجربة شيئاً فشيئاً، إلى أن تتم الفائدة منها، وهذا هو المسمى العقل التجريبي.

والثالثة: الفكر الذي يفيد العلم أو الظن بمطلوب وراء الحس لا يتعلق به عمل، فهذا هو العقل النظري، وهو تصورات وتصديقات تنتظم انتظاماً خاصاً على شروط خاصة، فتفيد معلوماً آخر من جنسها، في التصور أو التصديق، ثم ينتظم مع غيره فيفيد علوماً أُخر كذلك، وغاية إفادته تصور الوجود على ما هو عليه بأجناسه وفصوله، وأسبابه وعلله، فيكمل الفكر بذلك في حقيقته ويصير عقلاً محضاً ونفساً مدركة، وهو معنى الحقيقة الإنسانية.[1]

فصل في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع

وذلك أن الحذق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده، والوقوف على مسائله واستنباط فروعه من أصوله. وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك المتناول حاصلاً. وهذه الملكة هي غير الفهم والوعي، لأنا نجد فهم المسألة الواحدة من الفن الواحد ووعيها مشتركاً بين من شدا في ذلك الفن، وبين من هو مبتدئ فيه، وبين العامي الذي لم يحصل علماً وبين العالم النحرير... والملكات كلها جسمانية سواءً أكانت في البدن أو في الدماغ من الفكر وغيره كالحساب. والجسمانيات كلها محسوسة، فتفتقر إلى التعليم. ولهذا كان السند في التعليم في كل علم أو صناعة إلى مشاهير المعلمين فيها معتبراً عند كل أهل أفق وجيل.[2]

ويدل أيضاً على أن تعليم العلم صناعة اختلاف الاصطلاحات فيه، فلكل إمام من الأئمة المشاهير اصطلاح في التعليم يختص به، شأن الصنائع كلها... وإذا تقرر ذلك فاعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد أن ينقطع عن أهل المغرب باختلال عمرانه وتناقص الدول فيه، وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها.[3] ...

---

(١) المرجع السابق، ص٩١٦-٩١٧.

(٢) المرجع السابق، ص٩٢٥.

(٣) المرجع السابق، ص٩٢٥-٩٢٦.

وحسن الملكات في التعليم والصنائع وسائر الأحوال العادية يزيد الإنسان ذكاء في عقله، وإضاءة في فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس؛ إذ قدمنا أن النفس إنما تنشأ بالإدراكات وما يرجع إليها من الملكات، فيزدادون بذلك كيساً لما يرجع إلى النفس من الآثار العلمية، فيظنه العامي تفاوتاً في الحقيقة الإنسانية، وليس كذلك.

ألا ترى إلى أهل الحضر مع أهل البدو كيف تجد الحضري متحلياً بالذكاء ممتلئاً من الكيس، حتى إن البدوي ليظنه أنه قد فاته في حقيقة إنسانيته وعقله وليس كذلك، وما ذاك إلا لإجادته في ملكات الصنائع والآداب في العوائد والأحوال الحضرية مالا يعرفه البدوي، فلما امتلأ الحضري من الصنائع وملكاتها وحسن تعليمها ظن كل من قصّر عن تلك الملكات أنها لكمالٍ في عقله، وأن نفوس أهل البدو قاصرة بفطرتها وجبلتها عن فطرته، وليس كذلك.

فإنا نجد من أهل البدو من هو في أعلى رتبة من الفهم والكمال في عقله وفطرته، إنما الذي ظهر على أهل الحضر من ذلك هو رونق الصنائع والتعليم، فإن لها آثاراً ترجع إلى النفس كما قدمناه، وكذا أهل المشرق لما كانوا في التعليم والصنائع أرسخ رتبة، وأعلى قدماً، وكان أهل المغرب أقرب إلى البداوة لما قدمناه في الفصل قبل هذا، ظن المغفلون في بادئ الرأي أنه لكمال في حقيقة الإنسانية اختصوا به عن أهل المغرب وليس ذلك بصحيح فتفهمه. والله "يزيد في الخلق ما يشاء".[1]

فصل في أصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد

اعلم أن العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلاً وتعليماً هي على صنفين: صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره، وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه، والأول هي العلوم الحِكْمية الفلسفية، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره، ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها ووجوه تعليمها حتى يقِفَهُ نظره وبحثه على الصواب من الخطأ فيها، من حيث هو إنسان ذو فكر، والثاني هي العلوم النقلية الوضعية، وهي كلها مستندة إلى

(١) المرجع السابق، ص٩٢٨-٩٢٩.

الخبر عن الواضع الشرعي، ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول، لأن الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلي، بمجرد وضعه، فتحتاج إلى الإلحاق بوجه قياسي، إلا أن هذا القياس يتفرع عن الخبر بثبوت الحكم في الأصل، وهو نقلي فرجع هذا القياس إلى النقل لتفرعه عنه.[1]

العلوم العقلية وأصنافها:

وأما العلوم العقلية التي هي طبيعية للإنسان من حيث إنه ذو فكر؛ فهي غير مختصة بملة، بل يوجَّه النظر فيها إلى أهل الملل كلهم، ويستوون في مداركها ومباحثها. وهي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمران الخليقة، وتسمى هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة.

فصل في المقاصد التي ينبغي اعتمادها بالتأليف وإلغاء ما سواها

إن الناس حصروا مقاصد التأليف التي ينبغي اعتمادها وإلغاء ما سواها فعدوها سبعة:

أولها: استنباط العلم بموضوعه، وتقسيم أبوابه وفصوله، وتتبُّع مسائله، أو استنباط مسائل ومباحث تعرض للعالم المحقِّق يحرص على إيصالها لغيره؛ ...

ثانيها: أن يقف على كلام الأولين وتآليفهم؛ فيجدها مستغلقة على الأفهام، ويفتح الله له في فهمها، ...

وثالثها: أن يعثر المتأخر على غلطٍ أو خطأٍ في كلام المتقدمين؛ ...ويستوثق في ذلك بالبرهان الواضح الذي لا مدخل للشك فيه، فيحرص على إيصال ذلك لمن بعده، ...

رابعها: أن يكون الفنُّ الواحد قد نقصت منه مسائل أو فصول، بحسب انقسام موضوعه؛ فيقصد المطَّلع على ذلك أن يتمِّم ما نقص من تلك المسائل...

---

(١) المرجع السابق، ص٩٣٠-٩٣٢.

خامسها: أن تكون مسائل العلم قد وقعت غير مرتبة في أبوابها ولا منتظمة؛ فيقصد المطَّلع على ذلك أن يرتبها ويهذِّبها، ...

سادسها: أن تكون مسائل العلم مفرَّقة في أبوابها من علوم أخرى؛ فيتنبَّه بعض الفضلاء إلى موضوع ذلك الفنِّ، وجمع مسائله؛ فيفعل ذلك، ويظهر به فنٌّ ينظمه في جملة العلوم ...

سابعها: أن يكون الشيء من التآليف التي هي أمهات للفنون مطوَّلاً مسهباً؛ فيقصد بالتأليف تلخيص ذلك؛ بالاختصار والإيجاز وحذف المتكرِّر ...

فهذه جماع المقاصد التي ينبغي اعتمادها وما سوى ذلك ففعل غير محتاج إليه، وخطأ عن الجادة؛ التي يتعيَّن سلوكها في نظر العقلاء، ...، نعوذ بالله من العلم في ما لا ينبغي للعاقل سلوكه، والله يهدي للتي هي أقوم.[1]

في أنَّ الشدة على المتعلمين مضرة بهم

وذلك أن إرهاف الحد بالتعليم مُضِرٌ بالمتعلم، سيما في أصاغر الوُلد؛ لأنه من سوء الملكة، ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر، وضيق عن النفس في انبساطها، وذهب بنشاطها، ودعاه إلى الكسل، وحمل على الكذب والخبث، وهو التظاهر بغير ما في ضميره، خوفاً من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلّمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وخلقاً، وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن، وهي الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله، وصار عيالاً على غيره في ذلك، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل، فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها، فارتكس وعاد في أسفل السافلين.[2] ...

* * *

(١) المرجع السابق، ص١١٠٣-١١٠٧.

(٢) المرجع السابق، ص١١١٩.

حادي عشر: "منية المريد في أدب المفيد والمستفيد" لزين الدين العاملي[1]

١- التعريف بـ"زين الدين العاملي":

هو زين الدين بن نور الدين علي العاملي، وُلد في قرية جبع، في لبنان، عام ٩١١هـ، أخذ علوم العربية والفقه على يد والده، ثم عن عدد كبير من علماء عصره.

اختار التدريس في المدرسة النورية في بعلبك. كان يدرس الفقه المقارن والعقائد التطبيقية. ثمة روايات متضاربة حول ملابسات موتته مقتولاً عام ٩٦٥هـ، ويسميه الشيعة "الشهيد الثاني". عُرف بتضلعه في علوم كثيرة: الفقه، والأُصول، والحديث، وعلوم الهيئة، والفلَك، والطبّ والرياضيّات، والأدب، والفلسفة، واللغة، والنحو والصرف، والبلاغة، والشعر، والقراءات القرآنية، والمنطق، والكلام.

٢- مؤلفاته:

من مؤلفاته: غُنية القاصدين في معرفة اصطلاحات المحدِّثين، وجواهر الكلمات في صيغ العقود والإيقاعات، ونتائج الأفكار في حكم المقيمين في الأسفار، وروض الجنان في شرح إرشاد الأذهان، ومنار القاصدين في معرفة معالم الدين، ومُنية المريد في آداب المفيد والمستفيد، وهو كتابٌ في آداب المعلمين والمتعلمين والقضاة.

يُعد هذا الكتاب من كتب التراث التربوي الشيعي الاثني عشري، وهو كتابٌ تربوي أخلاقي، ويعد من أكبر كتب التراث التربوي الإسلامي حجماً، حيث تبلغ كلماته حوالي: ٥٦ ألف كلمة، في (٢٢٠) صفحة، جاء في مقدمة وأربعة أبواب، وخاتمة. تضمت المقدمة بيان فضل العلم وأهميته، وأصناف العلماء، موثقة

---

(١) العاملي، زين الدين بن علي. **منية المريد في أدب المفيد والمستفيد**، دراسة وتحليل: د.عبد الأمير شمس الدين، بيروت: الشركة العالمية للكتاب، (١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).

بنصوص من القرآن والسنة، وآثار آل البيت وغيرهم من العلماء والحكماء. وجاءت معظم التوجيهات في أبواب الكتاب متطابقة مع عدد من الكتب السابقة، ولا سيما كتاب تذكرة السامع لابن جماعة. وبيّنت الخاتمة أقسام العلوم الشرعية؛ الأصلية والفرعية، ومراتب العلم الشرعي، وترتيب العلوم بالنسبة للمتعلم.

٣- مختارات من كتاب "منية المريد في أدب المفيد والمستفيد":

إنَّ كمال الإنسان إنما هو بالعلم الذي يُضاهي به ملائكة السماء، ويستحق به رفيع الدرجات في العقبى مع جميل الثناء في الدنيا، ... لكن ليس العلم جميعه يوجب الزلفى، ولا تحصيله كيف اتفق يثمر الرضا، بل لتحصيله شرائط، ولتربيته ضوابط، وللمتلبس به آداب ووظائف، ولطلبه أوضاع ومعارف، ولا بد لمن أراد شيئاً منه الوقوف عليها والرجوع في مطلوبه إليها، لئلا يضيع سعيه ولا يحمد جده.[١]

الفصل الأول: شواهد نقليّة

اعلم أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ جعل العلم هو السبب الكلي لخلق هذا العالم العلوي والسفلي طراً، وكفى بذلك جلالة وفخراً. قال الله تعالى في محكم الكتاب تذكرة وتبصرة لأولي الألباب: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾ [الطلاق: ١٢] وكفى بهذه الآية دليلاً على شرف العلم، لا سيما علم التوحيد الذي هو أساس كل علم ومدار كل معرفة.[٢]

وأما السنة؛ فمنها قول النبي: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين. وقوله ﷺ: "من طلب علماً فأدركه كتب الله له كفلين من الأجر، ومن طلب علماً لم يدركه كتب الله له كفلاً من الأجر". وقوله ﷺ: "من أحبَّ أن ينظر إلى عتقاء الله من النار فلينظر إلى المتعلمين، فوالذي نفسي بيده ما مرَّ متعلم يختلف إلى باب العالم، إلا كتب الله بكل قدم عبادة سنة."[٣]

---

(١) المرجع السابق، ص٨٩-٩٠.

(٢) المرجع السابق، ص٩٣-٩٤.

(٣) المرجع السابق، ص٩٧.

عن الأئمة

ومن طريق الخاصة ما رويناه بالإسناد الصحيح إلى أبي الحسن علي بن موسى الرضا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، عن آبائه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أنه قال: "طلبُ العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم، فاطلبوا العلم في مظانّه واقتبسوه من أهله."[١]

وعن الباقر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: "من علّم باب هدى فله مثل أجر من عمل به، ولا ينقص أولئك من أجورهم شيئاً، ومن علّم باب ضلالة كان عليه مثل أوزار من عمل به، ولا ينقص لأولئك من أوزارهم شيئاً". وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "عالمٌ يُنتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد". وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إن الذي يعلّم العلم منكم له مثل أجر المتعلم، وله الفضل عليه، فتعلّموا العلم من حملة العلم وعلموه إخوانكم كما علمكموه العلماء".[٢]

عن العلماء والحكماء

روى الكليني بإسناده إلى علي عَلَيْهِ السَّلَامُ: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: "منهومان لا يشبعان: طالب دنيا وطالب علم، فمن اقتصر من الدنيا على ما أحل الله له سلم، ومن تناولها من غير حلها هلك إلا أن يتوب ويتراجع، ومن أخذ العلم من أهله وعمل به نجا، ومن أراد به الدنيا فهي حظه."

وبإسناده إلى الباقر عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: "من طلب العلم ليباهي به العلماء أو يماري به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه فليتبوأ مقعده من النار، إن الرئاسة لا تصلح إلا لأهلها."[٣]

في العلم والعمل

عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: جاء رجل إلى النبي فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: يا رسول الله، ما العلم؟ قال: الإنصات، قال: ثم مه يا رسول الله؟ قال: الاستماع، قال: ثم مه يا رسول الله؟ قال: الحفظ، قال: ثم مه؟ قال: العمل به، قال: ثم مه يا رسول الله؟ قال: نشره.[٤]

---

(١) المرجع السابق، ص١٠١.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٣-١٠٤.

(٣) المرجع السابق، ص١٢٥.

(٤) المرجع السابق، ص١٣٢.

openkan.com

آداب يختص بها المعلم

اعلم أن التعليم هو الأصل الذي به قوام الدين، وبه يؤمن انمحاق العلم، فهو من أهم العبادات، وآكد فروض الكفايات. قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [ل عمران: ١٨٧] وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة: ١٥٩][(١)]

إذا تكمل الطالب وتأهل للاستقلال بالتعليم، واستغنىٰ عن التعليم فينبغي أن يقوم المعلم بنظام أمره في ذلك، ويمدحه في المحافل، ويأمر الناس بالاشتغال عليه والأخذ عنه. فإن الجاهل بحاله قد لا يأنس ولا يطمئن به. وإن تصدىٰ للتعليم بدون إرشاد من هو معلوم الحال، ولينبه علىٰ حاله مفصلاً. ومقدار معلوماته وتقواه وعدالته. ونحو ذلك مما له مدخل في إقبال الناس علىٰ التعلم منه. فإن ذلك سبب عظيم لانتظام العلم وصلاح الحال، كما أنه لو رأىٰ منه ميلاً إلىٰ الاستبداد والتدريس ويعلم قصوره عن المرتبة، واحتياجه إلىٰ التعلم، ينبغي أن يقبح ذلك عنده، ويشدد النكير عليه في الخلاء.[(٢)]

أن يمكث قليلاً بعد قيام الجماعة، فإن فيه فوائد وآداباً له ولهم، منها إن كان في نفس أحد منهم بقايا سؤال تأخر، ومنها إن كان لأحد به حاجة قد صبر عليها حتىٰ فرغ، يذكرها له. ...

أن ينصّب لهم نقيباً فطناً كيساً، يرتب الحاضرين، ومن يدخل عليه علىٰ قدر منازلهم، ويوقظ النائم وينبه الغافل، ويشير إلىٰ ما ينبغي فعله وتركه، ويأمر بسماع الدروس والإنصات إليها لمن لا يعرف. وكذلك ينصِّب لهم رئيساً آخر يعلّم الجاهل ويعيد درس من أراد، ويرجع إليه في كثير مما يستحيي أن يلقىٰ به العالم من مسألة أو درس، فإن فيه ضبطاً لوقت العالم وصلاحاً لحال المتعلم.[(٣)]

---

(١) المرجع السابق، ص١٥٥.

(٢) المرجع السابق، ص١٧٢-١٧٣.

(٣) المرجع السابق، ص١٨٤-١٨٥.

أن يترك التزويج حتى يقضي وطره من العلم، فإنه أكثر شاغل وأعظم مانع، بل هو المانع جملة، حتى قال بعضهم: "ذبح العلم في فروج النساء."[١]

أن يترك العشرة مع من يشغله عن مطلوبه، فإن تركها من أهم ما ينبغي لطالب العلم، ولا سيما لغير الجنس وخصوصاً لمن قلت فكرته وكثر تعبه وبطالته. فإن الطبع سرّاق. وأعظم آفات العشرة ضياع العمر بغير فائدة، وذهاب الغرض والدين إن كانت لغير أهل.[٢]

اعلم أن المناظرة في أحكام الدين من الدين. ولكن لها شروط ومحل ووقت. فمن اشتغل بها على وجهها، وقام بشروطها، فقد قام بحدودها، واقتدى بالسلف فيها. فإنهم تناظروا في المسائل، وما تناظروا إلا لله، ولطلب ما هو حق عند الله تعالى.

اعلم أن المناظرة الموضوعية لقصد الغلبة والإفحام والمباهاة والتشوق لإظهار الفضل هي منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله تعالى، المحمودة عند عدوه إبليس. ونسبتها إلى الفواحش الباطنة من الكبر، والعجب، والرياء، والحسد، والمنافسة، وتزكية النفس، وحب الجاه وغيرها، نسبة الخمر إلى الفواحش الظاهرة من الزنا، والقتل، والقذف.[٣]

الكتابة من أجلِّ المطالب الدينية: وأكبر أسبابها الملة الحنيفية من الكتاب والسنة وما يتبعهما من العلوم الشرعية، ويتوقفان عليه من المعارف العقلية، وهي منقسمة في الأحكام حسب العلم المكتوب. فإن كان واجباً على الأعيان فهي كذلك، حيث يتوقف عليها حفظه. وإن كان واجباً على الكفاية فهي كذلك. وإن كان مستحباً فكتابته مستحبة، وهي في زماننا هكذا.[٤]

---

(١) المرجع السابق، ص١٨٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٨٩.

(٣) المرجع السابق، ص٢٥٤.

(٤) المرجع السابق، ص٢٧١.

ينبغي لطالب العلم أن يعتني بتحصيل الكتب المحتاج إليها في العلوم النافعة ما أمكنه، بكتابة أو شراء وإلا فبإجارة أو إعارة لأنها آلة التحصيل. وكثيراً ما تدرب بها الأفاضل في الأزمنة السابقة، وحصل لهم بواسطتها ترقّ زائد على من لم يتمكن منها. ولهم في ذلك أقاصيص يطول الأمر بشرحها، ولا ينبغي للطالب أن يجعل تحصيلها وجمعها وكثرتها حظه من العلم ونصيبه من الفهم، بل يحتاج مع ذلك إلى التعب والجد والجلوس بين يدي المشايخ.

أن لا يشتغل بنسخها إن أمكنه تحصيلها بشراء ونحوه؛ لأن الاشتغال بتحصيل العلم أهم. نعم، لو تعذر الشراء لعدم الثمن أو لعزة الكتاب، فليكتب لنفسه ولا يرضى بالاستعارة مع إمكان تملكه، ومتى آل الحال إلى النسخ فليشمّر له، فإن الله يعينه ولا يضيّع به حظه من العلم، ولا يفوت الحظ إلا بالكسل. ومن ضبط وقته حصل مطلبه.[1]

* * *

ثاني عشر: "آداب العلماء والمعلمين"[2] للحسين بن المنصور بالله القاسم الزيدي العلوي المعتزلي

١- التعريف بـ"الحسين بن المنصور بالله":

المؤلف عالم زيدي معتزلي، ينتسب إلى الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. ولد عام ٩٩٩هـ في شرف باليمن ، وتوفي ودفن في ذمار باليمن، عام ١٠٥٠هـ.

٢- مؤلفاته:

من مؤلفاته رسالة في المنطق ورسالة في عدم اشتراط الإمام الأعظم في صلاة الجمعة، ومن كتبه: كتاب الإرشاد إلى سبيل الرشاد، وله غاية السول في علم

(١) المرجع السابق، ص٢٧٣.

(٢) الزيدي، الحسين بن المنصور بالله القاسم بن محمد. **كتاب آداب العلماء والمعلمين**، راجعه وعلق عليه: راشد بن مصطفى الخليلي، صيدا وبيروت: المكتبة العصرية، ط١، ٢٠٠٩م.

الأصول، وشرحه هداية العقول، وكتاب آداب العلماء والمتعلمين.

جاءت مادة الكتاب في نحو ١٤٠٠٠ كلمة (٥٦) صفحة، تضمنت سبعة فصول: آداب العالم في نفسه، وفي درسه، ومع طلبته، وآداب المتعلم في نفسه ومع شيخه وقدوته، وما يجب عليه من عظم حرمته، وفي الآداب مع الكتب التي هي آلة العلم، وما يتعلق بتصحيحها وضبطها، وآداب المتعلم في درسه وقراءته في الحلقة ما يعتمد فيها الشيخ والرفقة، وللكتاب خاتمة في ذكر ما ينبغي لأهل البيت النبوي من الآداب والتزكية والأخلاق السنية.

والفصول الستة الأولى هي الفصول الواردة في كتاب تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، للإمام بدر الدين محمد بن أبي إسحاق ابن جماعة الكناني. ويكاد نص هذا الكتاب هو نص ابن جماعة كلمة كلمة. والفرق الأساسي أن كتاب الزيدي هذا لا يتضمن ما ورد في بداية كتاب ابن جماعة عن "فضل العلم وأهله وشرف العالم ونبله"، وفي نهايته عن "آداب سكنى المدارس."

٣- مختارات من كتاب "آداب العلماء والمعلمين":

الفصل الأول: آداب العالم في علمه

وفيه اثنا عشر نوعاً:

العاشر دوام الحرص على الازدياد بملازمة الجد والاجتهاد؛ والمواظبة على وظائف الأوراد عبادة وقراءة وافرة، ومطالعة وفكراً وتعليقاً وحفظاً، وتصنيفاً وبحثاً، ولا يضيع شيئاً من أوقات عمره في غير ما هو بصدده من العلم والعمل، إلا بقدر الضرورة من أكل، أو شرب، أو نوم، أو استراحة لملل، أو أداء حق زوجة، أو زائر، أو تحصيل قوت وغيره، مما يحتاج إليه أولاده أو غيره، مما يتعذر معه الاشتغال، فإن بقية عمر المؤمن لا قيمة لها. ومن استوى يوماه فهو مغبون.[١]

(١) المرجع السابق، ص٢٣.

الثاني عشر: الاشتغال بالتصنيف والجمع والتأليف، ولكن مع تمام الفضيلة وكمال الأهلية، فإنه يطلع على حقائق الفنون ودقائق العلوم للاحتياج إلى كثرة التفتيش والمطالعة والتنقيب والمراجعة. وهو كما قال الخطيب البغدادي: يثبت الحفظ، ويذكي القلب، ويشحذ الطبع، ويجيد البيان، ويكسب جميل الذكر وجزيل الأجر، ويخلده إلى آخر الدهر. ... والأولى أن يعتني بما يعم نفعه وتكثر الحاجة إليه، وليكن اعتناؤه بما لم يسبق إلى تصنيفه.[1]

الفصل الثالث: في آداب العَالِمِ مع طَلَبتِه

أن لا يظهر للطلبة تفضيل بعضهم على بعض ... فإن ذلك يوحش الصدور وينفر القلوب، فإن كان لأحدهم فضيلة، فأظهر إكرامه لأجلها فلا بأس بذلك؛ لأنه ينشط ويبعث على الاتصاف بتلك الصفات... وينبغي أن يتودد لحاضرهم، ويذكر غائبهم بخير وحسن ثناء. وينبغي أن يستعلم عن أسمائهم، وأنسابهم، ومواطنهم، وأحوالهم، ويكثر الدعاء لهم.[2]

الفصل الرابع: في آداب المتعلم في نفسه

أن يترك العشرة، فإن تركها من أهم ما ينبغي لطلب العلم، ولا سيما لغير الجنس، ... وآفة العشرة ضياع العمر بغير فائدة، وذهاب المال والعرض إن كانت لغير أهل، وذهاب الدين إن كانت لغير أهله. والذي ينبغي لطالب العلم أن لا يخالط إلا من يفيد أو يستفيد منه، فإن شرع أو تعرض لصحبة من يضيع عمره معه، فليتلطف في قطع عشرته في أوائل الأمر قبل تمكنها، فإن الأمور إذا تمكنت عسرت إزالتها، ...فإن احتاج إلى من يصحبه فليكن صالحاً، ديناً، تقياً، ... فإن نسي ذكَّره، وإن ذكر أعانه، وإن احتاج واساه، أو ضجر صبَّره.[3]

---

(١) المرجع السابق ص٢٦-٢٧.

(٢) المرجع السابق، ص٥٥.

(٣) المرجع السابق، ص٦٧-٦٨.

الفصل الخامس:

في آداب المتعلم مع شيخه، وقدوته، وما يجب عليه من عظيم حرمته

أن ينقاد لشيخه في أموره، ولا يخرج عن رأيه وتدبيره، بل يكون معه كالمريض مع الطبيب الماهر، فيشاوره فيما يقصده، ويتحرىٰ رضاه فيما يعتمده، ويبالغ في حرمته ويتقرب إلىٰ الله بخدمته، ويعلم أن ذلّه لشيخه عز، وخضوعه فخر، وتواضعه له رفعة.[1]

الفصل السابع:

في الآداب مع الكتب هي آلة العلم وما يتعلق بتصحيحها أو ضبطها

ينبغي لطالب العلم أن يعتني بتحصيل الكتب المحتاج إليها ما أمكنه شراءً، وإلا فإجارة أو عارية؛ لأنها آلة التحصيل، ولا يجعل تحصيلها وكثرتها حظه من العلم، وجمعها نصيبه من الفهم، كما يفعله كثير من المنتحلين الفقه والحديث، وقد أحسن القائل، إذا لم تكن حافظاً واعياً، فجمعك للكتب لا ينفع، وإذا أمكن تحصيلها شراء لم يشتغل بنسخها، ولا ينبغي أن يشتغل بدوام النسخ، إلا فيما يتعذر عليه تحصيله لعدم ثمنه أو أجرة استنساخه، ولا يهتم المشتغل بالمبالغة في تحسين الخط، وإنما يهتم بتصحيحه وبضبطه، ولا يستعير كتاباً مع إمكان شرائه أو إجارته.[2]

يستحب إعارة الكتب لمن لا ضرر عليه فيها ممن لا ضرر منه بها، لما فيه من الإعانة علىٰ العلم، مع ما في مطلق العارية من الفضل والأجر. قال رجل لأبي العتاهية: أعرني كتابك، فقال: إني أكره ذلك، فقال: أما علمت أن المكارم موصولة بالمكاره، فأعاره... وينبغي للمستعير أن يشكر للمعير ذلك ويجزيه خيراً، ولا يطيل مقامه عنده من غير حاجة، ولا يحشيه ولا يكتب شيئاً في بياض فواتحه وخواتمه.[3]

إذا استعار كتاباً فينبغي له أن يتفقده عند إرادة أخذه وردّه، وإذا اشترىٰ كتاباً تعهّد أوله وآخره ووسطه وترتيب أبوابه وكراريسه، وتصفح أوراقه واعتبر صحته،

---

(١) المرجع السابق، ص٧٢.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٣.

(٣) المرجع السابق، ص١٠٣- ١٠٤.

ومما يغلب على الظن صحته إذا ضاق الزمان عن تفتيشه، ما قاله الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: إذا رأيت الكتاب فيه إلحاق وإصلاح، فاشهد له بالصحة، وقال بعضهم: لا يضيء الكتاب حتى يظلم، يريد إصلاحه.[1]

لا بأس بكتابة الحواشي والفوائد والتنبيهات المهمة على حواشي كتاب يملكه ولا يكتب في آخره "صح" فرقاً بينه وبين التخريج، وبعضهم يكتب عليه حاشية أو فائدة، وبعضهم يكتب في آخرها دارة كذا. ولا ينبغي أن يكتب إلا الفوائد المهمة المتعلقة بذلك الكتاب، مثل تنبيه على إشكال أو احتراز، أو رمز أو خطأ، أو نحو ذلك.[2]

خاتمة

في ذكر ما ينبغي لأهل البيت النبوي من الآداب الزكية، والأخلاق السنية، والهمم العلية. وذلك خمسة أنواع:

الأول: بذل الهمة في تحصيل العلوم الشرعية خصوصاً الكتاب العزيز والسنة النبوية؛ لأن أولى الناس بذلك أهل البيت النبوي، ولم يزل سلفهم رضوان الله عليهم على ذلك، فإن العلوم الشرعية ما ظهرت وانتشرت إلا من عنصر بيتهم الشريف فكيف لا يهتمون بهذا... أخرج الخطيب في الجامع عن الشعبي،... وقال محمد النفس الزكية بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ: كنت أطلب العلم في دور الأنصار حتى أني لأتوسد عتبة أحدهم فيوقظني الإنسان فيقول: إن سيدك قد خرج إلى الصلاة وما يحسبني إلا عبده.[3] ...

الرابع: ترك الفخر بالآباء وعدم التعويل عليهم من غير اكتساب للفضائل الدينية، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]... وروى العسكري والقضاعِي وغيرهما عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: (من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه). ...

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٦.

(٢) المرجع السابق، ص١١١.

(٣) المرجع السابق، ص١١٧- ١٢٠.

obeikan.com

الخامس: سلوك طريق سلفهم في التواضع والحلم والصبر على الأذى ذاكرين قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]. وما كان عليه نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الصبر على الأذى، وما كانوا يتحملونه في الله تعالى، حتى كانت لهم العقبى. فينبغي لأهل البيت النبوي اتباع سلفهم في اقتفاء آثارهم، والاهتداء بهديهم وأنوارهم، والاقتداء بأقوالهم وأفعالهم وزهدهم وورعهم، وتحققهم لمعرفة ربهم عَزَّوَجَلَّ، فإنهم أولى الناس بذلك.[1]

ثالث عشر: "أدب الطلب ومنتهى الأرب" لمحمد بن علي الشوكاني[2]

١- التعريف بالشوكاني:

ولد الإمام محمد بن علي بن محمد الشوكاني، عام (١١٧٣هـ/ ١٧٦٠م) في بلدة هجرة شوكان باليمن. قرأ العلم على والده، وعلى علماء عصره في مجالات الفقه، واللغة، والحديث، والقرآن، والمنطق، وغيرها. يسَّر له والده التفرغ الكامل للعلم ومجالسة العلم والأدباء، فاستكمل التأهيل العلمي في ميادين عديدة، وأنجز كثيراً من المصنفات قبل أن يصل إلى سن الثلاثين سنة، ثم عين في القضاء، وكانت تحال إليه مسؤوليات في إدارة الشؤون الداخلية والخارجية للدولة.

وهو عالم موسوعي مجتهد ومجدد، ومفسر، ومحدث، وفقيه، وأصولي، ومؤرخ، وأديب، وشاعر، ومحقق، وناقد، وفيلسوف. نهض الشوكاني بقوة وعزم ملحوظين للقيام بمهمة تجديد الفكر الإسلامي، بالدعوة إلى الاجتهاد، وتحرير العقل من التقليد والتعصب، وإطلاق قدرته على التفكير والإبداع. عُرف من مؤلفاته من يزيد على ٢٤٠ من الكتب والرسائل، في أنواع العلوم كافة، توفي ١٢٥٠هـ.

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٨-١٢٩.

(٢) الشوكاني، محمد بن علي بن عبد الله. **أدب الطلب ومنتهى الأرب**، تحقيق ودراسة: عبد الله يحيى السريحي، بيروت وصنعاء: دار ابن حزم ومكتبة الإرشاد، ١٩٩٨م. (٢٩٥) صفحة.

٢- التعريف بـ"أدب الطلب ومنتهى الأرب":

ويعد كتاب أدب الطلب مشروعاً كاملاً في جهود الإصلاح للأمة الإسلامية في المعرفة والمنهج. يعتقد المؤلف أن الطلاب المبتدئين والعلماء النابغين في حاجة لقواعد هذا الكتاب. أهم ما امتاز به محاربته للتعصب، وبيان طبقات المتعلمين. يصنف الكتاب في المدرسة الفقهية. ويقع نص الكتاب (مجرداً من الشرح والتحقيق) فيما يقرب من (١٧٠) صفحة نحو (٤٢٥٠٠) كلمة.

٣- نصوص مختارة من أدب الطلب ونهاية الأرب للشوكاني:

وبعد، فإني قد عزمتُ، عَزَم الله لي على الخير، على أن أجمع في هذه الورقات ما ينبغي لطالب العلم اعتماده في طلبه والتحلي به في إيراده وإصداره وابتدائه وانتهائه، وما يشرع فيه، ويتدرج إليه حتى يبلغ مراده على وجه يكون به فائزاً بما هو الثمرة والعلة الغائية، التي هي أول الفكر وآخر العمل. وسمّيته "أدب الطلب ومنتهى الأرب.

وإني أتصور الآن أن الكلام بمعونة الله ومشيئته لا بد أن يتعدى إلى فوائد ومطالب ينتفع بها المنتهي كما ينتفع بها المبتدي، ويحتاج إليها الكامل كما يحتاج إليها المقصر، ويعدها المتحققون بالعرفان من أعظم الهدايا.[١]

فإنْ وطَّنْتَ نفسك أيها الطالب على الإنصاف، وعدم التعصب لمذهب من المذاهب، ولا لعالم من العلماء، بل جعلت الناس جميعاً بمنزلة واحدة في كونهم منتمين إلى الشريعة محكوماً عليهم بما لا يجدوا لأنفسهم عنها مخرجاً، ولا يستطيعون تحولاً، فضلاً عن أن يرتقوا إلى واحد منهم، أو يلزمه تقليده وقبول قوله، فقد فزت بأعظم فوائد العلم، وربحت بأنفس فرائده.[٢]

---

(١) المرجع السابق، ص٨١.

(٢) المرجع السابق، ص٨٩.

الفصل الأول

الأسباب التي تؤدي إلى البعد عن الحق والتعصب

اعلم أن سبب الخروج عن دائرة الإنصاف، والوقوع في موبقات التعصب كثيرة جداً.

أولاً: أثر البيئة، والتنشئة الاجتماعية، وقصور العلماء عن أداء رسالتهم.[١]

ثانياً: تزلّف بعض العلماء للسلطة، وإخضاع الدين لهواها.[٢]

ثالثاً: الجدل والمراء وحب الظهور والغلب.[٣]

رابعاً: التعصب للآباء والأجداد.[٤]

خامساً: أثر الدولة في فرض المذهب الذي يخدم مصلحتها ويدعم شرعيتها.[٥]

سادساً: إصرار بعضهم على التمسك بالخطأ، وعدم التراجع عنه بعد معرفتهم للحق والصواب.[٦]

ويرجع ذلك إلى أسباب عدة:

- الخوف على سمعته، ومكانته العلمية.
- بدافع الكبر إذا كان صاحب الرأي الصواب أصغر منه سناً، أو أقل شهرة.[٧]
- ما يقع في مجالس العلم من الطلاب أو الشيوخ من المجاملة.[٨]

---

(١) المرجع السابق، ص٩١.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٦.

(٣) المرجع السابق، ص١١٠.

(٤) المرجع السابق، ص١١٠.

(٥) المرجع السابق، ص١١٣.

(٦) المرجع السابق، ص١٤١.

(٧) المرجع السابق، ص١٤٢.

(٨) المرجع السابق، ص١٤٢.

obeikan.com

سابعاً: رد المصنفين المتمسكين بالمذاهب لكل ما يخالف قواعد مذهبهم من الأدلة.[١]

ثامناً: الاعتماد على الأدلة التي يحتج به المتعصبون لأنفسهم أو خصومهم، وعدم الرجوع إلى المصادر الأصلية.[٢]

تاسعاً: تقليد المتعصبين من علماء الجرح والتعديل.[٣]

عاشراً: الحسد والمنافسة بين الأقران.[٤]

أحد عشر: التباس ما هو من الرأي البحث بشيء من العلوم التي هي مواد الاجتهاد.[٥]

الفصل الثاني

طبقات/ فئات المتعلمين، وما ينبغي أن يتعلّمه طلاب كل فئة من العلوم

وإذا قد انتهى بنا الكلام في بيان الأسباب المانعة من الإنصاف إلى هذه الغاية، وتغلغل بنا البحث إلى ذكر ما ذكرناه من تلك الدقائق التي ينبغي لكل عالم ومتعلم أن تكون نصب عينيه في إقدامه وإحجامه، وأن تكون ثابتة في تصوره في جميع أحواله. وما أحقها بذلك، وأولاها بالحرص على ما هنالك، فإنها فوائد لا توجه في كتاب، وفرائد لا يخلو أكثرها من قوة كثير من المرشدين المحققين، وإن حال بينهم وبين إبرازها إلى الفعل حجاب.

فلنتكلم الآن على ما ينبغي لطالب العلم أن يتعلمه من العلوم.[٦]

---

(١) المرجع السابق، ص١٦٦-١٦٧.

(٢) المرجع السابق، ص١٦٨.

(٣) المرجع السابق، ص١٧٠.

(٤) المرجع السابق، ص١٧٣.

(٥) المرجع السابق، ص١٧٣.

(٦) المرجع السابق، ص١٧٩.

فأقول: إنها لما كانت تتفاوت المطالب في هذا الشأن، وتتباين المقاصد بتفاوت همم الطالبين وأغراض القاصدين، فقد ترتفع همة بعضهم، فيقصد البلوغ إلى مرتبة في الطلب لعلم الشرع ومقدماً لها، يكون عند تحصيلها إماماً مرجوعاً إليه، مستفاداً منه، مأخوذاً بقوله، مدرساً، مفتياً، مصنفاً، وقد تقصر همته عن هذه الغاية، فتكون غاية مقصده ومعظم مطلبه ونهاية رغبته أن يعرف ما طلبه منه الشارع من أحكام التكليف والوضع، على وجه يستقل فيه بنفسه ولا يحتاج إلى غيره، من دون أن يتصور البلوغ إلى ما تصوره أهل الطبقة الأولى من تعدي فوائد معارفهم إلى غيرهم والقيام في مقام أكابر الأئمة ونحارير هذه الأمة. وقد يكون نهاية ما يريده وغاية ما يطلبه أمراً دون أهل الطبقة الثانية، وذلك كما يكون من جماعة يرغبون في إصلاح ألسنتهم وتقويم أفهامهم بما يقتدرون به على فهم معاني ما يحتاجون إليه من الشرع، وعدم تحريفه وتصحيفه وتغيير إعرابه، من دون قصد منهم إلى الاستقلال، بل يعزمون على التعويل على السؤال عند عروض التعارض، والاحتياج إلى الترجيح.

فهذه ثلاث طبقات للطلبة من المتشرعين الطالبين للاطلاع على ما جاء في الكتاب والسنة، إما كلاً أو بعضاً بحسب اختلاف المقاصد وتفاوت المطالب.

وثم طبقة رابعة يقصدون الوصول إلى علم من العلوم، أو علمين، أو أكثر، لغرض من الأغراض الدينية والدنيوية، من دون تصور الوصول إلى علم الشرع. فكانت الطبقات أربع.[1]

فأكرم بنفس تطلب غاية المطالب في أشرف المكاسب! وأحبب برجل أراد من الفضائل ما لا تدانيه فضيلة، ولا تساميه منقبة، ولا تقاربه مكرمة! فليس بعد ما يتصوره أهل الطبقة الأولى متصور، فإن نالوه على الوجه الذي تصوروه فقد ظفروا من خير العاجلة والآجلة وشرف الدنيا والآخرة بما لا يظفر به إلا من صنع صنيعهم ونال نيلهم وبلغ مبالغهم، وإن اخترمهم دونه مخترم، وحال بينهم وبينه حائل فقد أعذروا، وليس على من طلب جسيماً ورام أمراً عظيماً إن منعته عنه الموانع وصرفته عنه

(١) المرجع السابق، ص١٧٩-١٨٠.

الصوارف من بأس.[1]

فاحرص أيها الطالب على أن تكون من أهل الطبقة الأولى، فإنك إذا ترقيت من البداية التصورية إلى العلة الغائية التي هي أول الفكر، وآخر العمل كنت فرد العالم وواحد الدهر وقريع الناس وفخر العصر ورئيس القرن، وأي شرف يسامي شرفك أو فخر يداني فخرك، وأنت تأخذ دينك عن الله وعن رسوله، لا تقلد في ذلك أحداً، ولا تقتدي بقول رجل، ولا تقف عند رأي، ولا تخضع لغير الدليل، ولا تعوّل على غير النقد. هذه والله رتبة تسمو على السماء، ومنزلة تتقاصر عندها النجوم، فكيف بك، إذا كنت مع هذه المزية مرجعاً في دين الله ملجأ لعباد الله، مترجماً لكتاب الله وسنة رسول الله، يدوم لك الأجر، ويستمر لك النفع، ويعود لك الخير، وأنت بين أطباق الثرى وفي عداد الموتى بعد مئتين من السنين.[2]

خاتمة:

اشتمل هذا الفصل على عدد من النماذج لبعض النصوص المنتقاة، تم اختيارها دون غيرها بعناية دقيقة، بناء على اعتبارات مهنية معينة، لتمثل أنماط المدارس التراثية التربوية كافة، حيث راعينا أن يكون كل نص منها يمثل مدرسة من تلك المدارس، فكتاب رسالة المسترشدين للمحاسبي يمثل المدرسة الصوفية، ورسالة المعلمين للجاحظ نموذج للمدرسة الأدبية، وآداب المعلمين لسحنون للفقه المالكي، بينما تعليم المتعلم للزرنوجي من الفقه الحنفي، وابن حزم للفقه الظاهري، وتذكرة السامع لابن جماعة للفقه الشافعي، وقناطر الخيرات يمثل المذهب الإباضي، وتحفة المودود لابن القيم للمذهب الحنبلي، ومنية المريد للعاملي عن المذهب الشيعي، وآداب العلماء والمعلمين، للحسين بن المنصور بالله القاسم يمثل المذهب الزيدي، وأدب الطلب ومنتهى الأرب للشوكاني يمثل الاتجاه التجديدي في الفقه، أما كتاب تهذيب الأخلاق فهو نموذج على المدرسة الفلسفية، وكتاب المقدمة لابن خلدون عن المدرسة التاريخية.

---

(١) المرجع السابق، ص١٨٢.

(٢) المرجع السابق، ص١٨٣.

ومن المفيد أن نتذكر أن ثمة تنوعاً واسعاً في مادة التراث التي نجدها في المذهب الفقهي الواحد، أو المدرسة الفكرية الواحدة، كما هو الحال في المدرسة الصوفية والمدرسة الفلسفية، فحين يطلع القارئ المهتم بهذا التنوع على نص المحاسبي في المدرسة الصوفية مثلاً، فإنه سيتذكر أن المحاسبي نموذج معتدل من التصوف المبكر، وأن ثمة نماذج صوفية أخرى توزعت على درجات مختلفة من التطرف، كما هو الحال في تصوف محيي الدين ابن عربي، والحسين بن منصور الحلاج، وجلال الدين الرومي، الذين اختلط تصوفهم بأفكار هندية وفارسية. ومثل ذلك يقال عن المدرسة الفلسفية، فقد اكتفينا بنموذج ابن مسكويه، مع العلم بأن ثمة نماذج أكثر إغراقاً في النقل عن اليونان، كما هو الحال عند ابن سينا والكندي، أو كما هو عند أصحاب الفلسفات الإشراقية مثل شهاب الدين السهروردي المقتول. ولا شك أن الاطلاع على هذا التنوع ضروري للمتخصصين، لكننا في هذا الفصل اكتفينا بنموذج واحد على كل مدرسة من المدارس الكبرى.

لا تكفي هذه النماذج المختصرة في إعطاء الصورة الحية الكاملة، أو تدل على المستوى أو الحالة التي كانت عليه العملية التعليمية خلال تلك العصور، أو الأمصار، ولمن أراد المزيد، فقد توسعنا في بيان هذا الجانب في كتاب آخر[1] ضمَّ هذه النماذج وغيرها بصورة أوسع، وصلت إلى عشرين نصاً من تلك النصوص، وقفنا فيها على أهم المصنفات التي كان لها أثر واضح في العملية التربوية في تراثنا الإسلامي، وعرَّفنا فيها بالكتاب الذي تم اختياره ونبذة موجزة عن صاحبه، ثم تناولنا أهم النصوص والقضايا التي بسطها في ذلك الكتاب، دون شرح منا أو بيان، إنما تركنا تلك النصوص تتحدث عن نفسها، وكنا حريصين كل الحرص على تناول كلامهم كافة فيها، ولكننا وجدنا أنفسنا في بعض الأحيان مضطرين إلى اقتطاع أجزاء من كلامهم وتجاوزه، إما لطول ذلك الكتاب، أو لتشابه كلامه مع غيره مما يغني عنه، أو لغير ذلك

(١) ملكاوي، فتحي حسن. **نصوص من التراث التربوي الإسلامي**. هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠١٧م.

من الأسباب، أما في حالة كون النص قصيراً كما هو الحال في مادة الجاحظ؛ فكنا نأخذه كله دون اقتطاع أو اختصار.

ومن المفيد كذلك أن ننوّه أن قائمة العشرين نصاً التي تضمنها الكتاب الثاني في هذه السلسلة، هي في الأصل مختصرة من قائمة طويلة نسبياً من مصادر التراث الإسلامي (١٠٧) مصادر اطلعنا على ما تحتويه من مادة تربوية مقدرة. وقد جعلناها في ملحق خاص بهذا الكتاب، سيكون في الاطلاع عليها تنويراً لرؤية القارئ لميدان للتراث التربوي الإسلامي، وتقديراً لغِنَى هذا الميدان وسَعَتِه.[1]

نحاول بإذن الله تعالى في الفصول اللاحقة أن نجري شيئاً من التحليل لهذه النصوص، ونقف على أهم نقاط الضعف أو القوة التي كانت تعتري العملية التربوية التراثية، وآثار الواقع التعليمي التربوي على حالة المجتمع الإسلامي في العصور المختلفة.

وقد يتساءل القارئ عن قيمة المادة التي اختزنها هذه الفصل، ما دام أنَّ ثـمَّة كتاباً آخر في نصوص التراث يتصف ببعض السعة والتفصيل، والجواب على ذلك أنَّ الهدف من إيراد هذه النماذج المختصرة هنا هو محاولة استكمال عناصر هذا الكتاب ليكون قائماً بذاته، على الرغم من أنه كتاب واحد في سلسلة تتكامل حلقاتها. فإذا تناول القارئ هذا الكتاب فربما يكتفي بما يقدمه له عن هذا التراث، ثم إذا أراد مزيداً من المعرفة والاطلاع على نصوص التراث وجدها في الكتاب الثاني من هذه السلسلة، وإذا فكر في اختيار مشروع بحثي في موضوع التراث، وجد شيئاً من الإرشاد في الكتاب الثالث من السلسلة.

لقد اجتهدنا أن يكون كل كتاب من هذه السلسلة كتاباً برأسه، قائماً بذاته، يؤدي غرضه الخاص به. وذلك توسيعاً لدائرة الجمهور من القرّاء، وتيسيراً عليهم، وتعميماً للفائدة.

والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل، والحمد لله ربّ العالمين.

---

(١) انظر الملحق رقم (١)، صفحة (٥٠٣) من هذا الكتاب.

obeikan.com